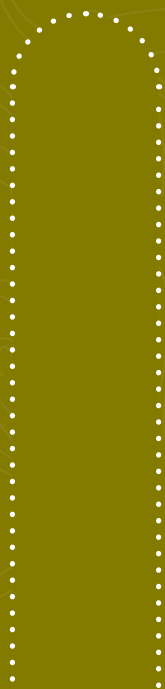


اللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ وَبَارِكْ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ



# مُحْفَوظَاتٌ جَمِيعُ حَقُوقِ

الطبعة الأولى

١٤٤٦هـ / ٢٠٢٤م

## ■ هوية الكتاب

الكتاب: سلسلة القرآن يهدي ج ٨:

الإنسان بين الإيثار والاستئثار

كيف نكتسب فضيلة الإيثار ونتحدّى رذيلة البخل والاستئثار؟

تدبّر موضوعي مقتبس من موسوعة (من هدى القرآن) لـ:

ساحة آية الله العظمى المرجع الديني

السيد محمد تقي المدرّسي (دام ظله).

إعداد وتحرير: الشيخ جواد صالح

تحقيق: مركز القرآن يهدي للدراسات القرآنية

الناشر: دار المحجة البيضاء - لبنان - بيروت

الرويس - مفرق محلات محفوظ ستورز - بناية رمال

ص.ب: ١٤/٥٤٧٩ - هاتف: ٠٣/٢٨٧١٧٩ - ٠١/٥٤١٢١١

تلفاكس: ٠١/٥٥٢٨٤٧ - E-mail: almahajja@terra.net.lb

www.daralmahaja.com info@daralmahaja.com





# الإنسان بين الإيثار والاستتار

كيف نكتسب فضيلة الإيثار ونتحدّى رذيلة البذل والاستتار؟

تدبّر موضوعي مقتبس من موسوعة (من هدى القرآن)

سَمَاحَةُ الْمَرْجِعِ الدِّينِيِّ آيَةُ اللَّهِ الْعُظْمَى

السيد محمد تقي الميلاني

إعداد وتحرير

الشيخ جواد صالح

اللَّهُمَّ اقْرَأْ بَنِيكَ

سُورَةُ الْفَاتِحَةِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿١﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾

الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾

إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ أَهْدِنَا

الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ

عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ

وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾



## تقديم سماحة آية الله العظمى المرجع الديني السيد محمد تقي المدرّسي (دام ظله)

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على محمّد وآله الطاهرين

لو فكّرتُ أنا، ولو فكّرنا نحن، هل تشملنا شكوى  
الرسول ﷺ حيث ينادي ربّه يوم القيامة ويقول:  
﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾<sup>(١)</sup>.

إذا لاستبَدَّ بنا الجزع، ولعل الكآبة، وعقدنا العزم مجدداً أن  
نتلو كتاب ربنا سبحانه حقّ تلاوته، فنقرأ ما تيسر منه آناء  
الليل وأطراف النهار، ونتدبّر في آياته الكريمة، ونطبّقها على  
أنفسنا أولاً.

(١) سورة الفرقان، الآية ٣٠.

هكذا كان السابقون، إذا مرّوا بآية فيها ذكر النار انتفضوا منها لكي لا يكونوا من أهلها، وإذا قرؤوا آية فيها ذكر الجنة سألوا ربهم أن يتفضل عليهم بها، وإذا مرّوا بحكمة أو وصية أو حكم، عقدوا العزم على أن ينفذوا مفاده في واقعهم.. لعلهم يكونون ممن قال عنهم ربهم تعالى:

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَّتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وعند التدبّر في القرآن ترانا بحاجة إلى استجماع فكرنا جيداً والتأمل في كلّ كلمة، وفي كلّ جملة، وفي كلّ آية، وهي تحتوي على جملات عادة.

وثمّ نساءل: ما علاقة هذه الآية وما فيها من بصائر بما قبلها وبعدها؟

وهكذا -وعبر ما نسميه بالتدبّر السياقي- قد يوفقنا ربنا تعالى في استيعاب حصيلته من المعاني.

والسؤال هل انتهى بنا المطاف إلى هنا؟

لعل هناك مرحلة أخرى هي التي نسميها بالتدبّر الموضوعي، أليس كتاب ربنا يصدّق بعضه بعضاً؟ وهكذا

(١) سورة الأنفال، الآية ٢.

وعبر التفكر في كل موضوع مستفاد من آية أو من سياق آيات وذلك عبر سياقات مختلفة في كتاب ربنا تعالى قد يوفّقنا الله تعالى للمزيد من البصائر، وإليك الأمثلة التالية:

### ١- الصراط المستقيم

ألسنا ندعو ربنا كل يوم وعند تلاوة سورة الحمد أن يهديننا الصراط المستقيم، ونقول:

﴿هُدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦١﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ  
غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾؟

فمن هم الذين أنعم ربنا عليهم؟ للإجابة نتلو في سورة النساء الآيات التالية:

﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا ﴿٦٦﴾ وَإِذْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٦٧﴾ وَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴿٦٨﴾ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾.

وهكذا نعرف صفات الذين أنعم الله عليهم من الطاعة

(١) سورة النساء، الآيات ٦٦ - ٦٩.

التامة لله والرسول، ونسعى بالتوكل على الله من أجل أن نتبعهم.

ويبقى السؤال: فمن هم المغضوب عليهم؟ ثم من هم الضالون؟

فإذا قرأنا قوله سبحانه في سورة البقرة في الآية ٦١ عن صفة اليهود سنعرف من هم المغضوب عليهم:

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاؤُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

وعن الضلالة والضالين نقرأ في سورة الأعراف:

﴿فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ إِنَّهُمْ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة البقرة، الآية ٦١.

(٢) سورة الأعراف، الآية ٣٠.

## ٢- أقل مدة الحمل

لقد استدلَّ الإمام علي عليه السلام على أنَّ أقل مدة الحمل ستة أشهر، وذلك بقراءة آيتين من كتاب الله سبحانه، حيث جاء في آية كريمة:

﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾<sup>(١)</sup>.

وقال تعالى في آية أخرى:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾<sup>(٢)</sup>.

## لطائف وإشارات مضيئة

وهكذا كلِّمنا تأملنا في القرآن المجيد رأينا -بفضل الله سبحانه- إشارات مضيئة بالجمع بين موضوعاته، سواء في فقه معاني كلماته أو تكامل معانيه.

وها نحن بعد التوكُّل على الله تعالى وبعد أن وفقنا الربِّ سبحانه لاستلهام المزيد من البصائر عبر التدبُّر في سياقات الآيات، والتي كتبنا بعضاً منها في موسوعة (من هدى القرآن) وأيضاً بعد أن سعينا نحو قراءة آيات القرآن وتطبيقها على

(١) سورة البقرة، الآية ٢٣٣.

(٢) سورة الأحقاف، الآية ١٥.

حقائق الواقع المعاصر عبر موسوعة (بينات من فقه القرآن) وُقِّمنا لتشكيل لجنة من العلماء لدراسة موضوعات مختلفة مما جاء في هاتين الموسوعتين وأيضاً ما جاء في موسوعة (التشريع الإسلامي) بالاستعانة بالله تعالى وبالاستنارة بالأحاديث الماثورة عن النبي ﷺ وعن أهل بيته الأئمة الهداة عليهم السلام، وإخراجها في موسوعة جديدة للتدبر الموضوعي، وقد تباركنا باسم قرآني حيث سمينا هذه الموسوعة -التي نرجو أن تكون أوسع وأجمع مما سبق- بعنوان (القرآن يهدي)<sup>(١)</sup> رجاء الحظوة بفضل ربنا عز وجل في الهداية.

علماً بأن هناك سبباً جعلنا نمضي قدماً في مسارين اثنين في هذه الموسوعة: جملاً وجوامع، فما هما؟

### ألف: جمل التدبر الموضوعي

بما أن الكثير من الناس اليوم يبحثون عن كلمات مختصرة، ولا يتحملون عبء دراسات مفصلة فقد أعد الأخوة الكرام في (مركز القرآن يهدي للدراسات القرآنية) منظومة من الأحاديث القرآنية التي وفقنا الرب سبحانه لإلقائها على فضلاء الحوزة العلمية في مدينة كربلاء المقدسة، وبعد

(١) جاء في الآية ٩ من سورة الإسراء: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَيِّنُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

إعدادها وتقديمها للجمهور أصبحت مساراً مميّزاً في طريق التدبر الموضوعي.

### باء: جوامع التدبر الموضوعي

وتعتبر الجوامع هذه بمثابة دراسات قرآنية تشمل المزيد من البصائر من هدى القرآن وضيء السنة الشريفة، وهي تنفع بإذن الله سبحانه للباحثين في الحقائق الدينية، والتي نرجو أن ينفع الله تعالى بها المؤمنين وبالأخص علماء الحوزات العلمية وأساتذة الجامعات. والله المستعان.

محمد تقي المدرسي

كربلاء المقدسة ١٧ ربيع الأول ١٤٤٥ هـ



## مقدمة الكتاب

بسم الله الرَّحْمَن الرَّحِيم

هناك صلة حقيقيّة بين الإنفاق وبين الخوف من القتال. فالقتال عطاء للنفس، بينما الإنفاق عطاء للمال، أو ليست صفة العطاء تنمو عند النفس البشريّة شيئاً فشيئاً كأية صفة نفسيّة أخرى؟

وهكذا نرى الإنفاق يساهم في القتال لحاجة القتال إلى المال، وقد جبلت النفس على الشحّ، سواء بالمال أو النفس، وهكذا نرى الإنسان يكره القتال بينما هو مكتوب عليه وهو خيرٌ له.

وإذا كان الأعداء يريدون ارتداد المسلمين على أعقابهم، بينما لا يجوز أتباعهم وطاعتهم، والربّ سبحانه وتعالى ينصر

عباده المؤمنين بإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم، لأن أولئك قد أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً.

والمؤمن يشترى نفسه لقاء فضل الرب له بإعطائه الرضوان والجنة، وعلى المؤمن أن يصمد عند اللقاء مع الأعداء، وأوليس كان يتمنى الموت في سبيل الله؟

وعلاقة المؤمن بالرسالة أشد من علاقته بالرسول، ومن هنا فإن موت الرسل ﷺ لم يجعل المؤمنين الصادقين يرتدوا عن رسالتهم، والموت من أجل الرسالة خير من الموت على الفراش، أليس كل إنسان يموت بأجله؟ فهل ينفع الفرار من الموت؟

وهكذا ترى من يريد الآخرة ويقتحم غمار الموت بإرادته سوف يجزيه ربه جزاءً حسناً، كذلك فإنك ترى المؤمن لا يصيبه أي هلع عند وقوع الحرب؛ لأنه قد سلم نفسه لله، وباع نفسه لربه.

وربنا سبحانه يستثني من واجب القتال ذوي العاهات، وفي نفس الوقت يذكّرنا بأهمية التلاحم الاجتماعي، ومن أبعاده مواكلة الأعمى والأعرج، والأكل في بيوت ذوي القربى، حقاً إن المجتمع المتلاحم أقرب إلى النصر على العدو.

وربنا سبحانه يذكّرنا بالنبي إبراهيم عليه السلام، وكيف استعدّ لذبح ابنه حينما رأى في المنام أنّه يذبحه، وربنا لكي نتّخذة نحن أسوة في التّضحية بعشر ما نملك (الزّكاة)، وهكذا يذكّرنا ربنا تعالى في كتابه المجيد قصّة إيثار الأنصار، وأنّ علينا أن نقتدي بهم، قال ربنا سبحانه عنهم: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَيَّ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾<sup>(١)</sup>، فقد تأسّس المجتمع المؤمن بالمدينة المنورة -ومن ثمّ انتشر- على قاعدة الحب في الله، والبغض في الله، وهو من أوثق عُرى الإيمان، وهكذا تعالى المسلمون عن الفوارق الأخرى مثل الوطنيّة، والقوميّة، والعنصريّة، والطبقيّة وغيرها، تساموا الى الوحدة الإيمانيّة، وكذلك يتسامى المسلمون عن رذيلة التّحاسد؛ لأنّهم عرفوا أنّ الحسد يأكل الإيمان كما تأكل النّار الحطب، حسب الخبر المأثور عن النبي صلى الله عليه وآله.

وأحاديث أهل البيت عليهم السلام وكما أحاديث النبي صلى الله عليه وآله مليئة بالكثير من التّريغيب في الإيثار وعلى العطاء، مثلاً قال الإمام الصّادق عليه السلام فيما روي عنه: «خِيَارُكُمْ سَمَحَاؤُكُمْ، وَشِرَارُكُمْ بُخْلَاؤُكُمْ».

وقال عليه السلام: «وَمَنْ خَالَصَ الْإِيمَانَ: الْبِرُّ بِالْإِخْوَانِ، وَالسَّعْيُ فِي

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

حَوَائِجِهِمْ، وَإِنَّ الْبَارَّ بِالْإِخْوَانِ لِيُحِبُّهُ الرَّحْمَنُ، وَفِي ذَلِكَ مَرْغَمَةٌ  
الشَّيْطَانِ، وَتَزْحُرُحُ عَنِ النَّيْرَانِ، وَدُخُولُ الْجَنَانِ»<sup>(١)</sup>.

كما نجد في سيرة أهل البيت عليهم السلام، وبالذات في بيت  
الرسالة الأول بيت فاطمة عليها السلام وعلى أبيها وبعلمها وبنيتها  
نجد كيف أنهم آثروا في الله، حيث إنهم عليهم السلام ما كان لديها إلا  
قوت الصبية، فقالت: لكننا نؤثر ضيفنا به.

بينما نجد كلمة رائعة للإمام أمير المؤمنين عليه السلام حيث  
يقول: «الْبُخْلُ جَامِعٌ لِمَسَاوِي الْعُيُوبِ، وَهُوَ زِمَامٌ يُقَادُ بِهِ إِلَى  
كُلِّ سُوءٍ»<sup>(٢)</sup>.

وعن أبي بصير يقول: قلت لأبي جعفر عليه السلام كان رسول  
الله ﷺ يتعوذ من البخل؟

فقال عليه السلام: «نَعَمْ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، وَنَحْنُ  
نَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الْبُخْلِ، اللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ  
هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»<sup>(٣)</sup>.<sup>(٤)</sup>

وفي بعض القصص التي يذكرنا الرب الكريم بها دروس

(١) الكافي، ج ٤، ص ٤١.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة رقم ٣٧٨.

(٣) سورة الحشر، الآية ٩.

(٤) بحار الأنوار، ج ١٢، ص ١٤٧.

عظيمة في الإيثار والتّضحية كما نقرأ في سورة العاديات، حيث أتهم أغاروا صُبْحاً، فأثاروا نفعاً، وتوسّطوا جمعاً، ثمّ قال ربّنا وهو يصف الإنسان: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ٦ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ٧﴾<sup>(١)</sup>، ثمّ يذكرنا ربّنا بصفته، فيقول تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ١ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ٢ إِنَّ رَبَّهُم بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ٣﴾.

كلمة أخيرة: للتّضحية منافع شتى للأمة، حيث يذكرنا القرآن بها في قوله سبحانه: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾ فالحرب -التي تعتبر أبرز مكان تتجلى فيه التّضحية- تفرز المنافقين عن المؤمنين، وتربيّ المقاتلين على الطّاعة، وتجعلهم يفكّرون في مصالح الأمة العُليا على المصالح الخاصّة، وتبرز مواهب المقاتلين، ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾<sup>(٢)</sup>، وتصفى النّفوس، وفي نفس الوقت تضعيف للعدو .

نسأل الله حُسن العاقبة، والله المستعان.

(١) سورة العاديات، الآيات ٦ - ٧.

(٢) سورة العاديات، الآيات ٩ - ١١.

(٣) سورة آل عمران، الآية ١٤٠.





الباب الأول:  
الإيتار





الفصل الأول:

# رحلة الإنفاق و التضحية





## خلاصة الفصل الأول

الإِنْفَاقُ مَطْلُوبٌ عَلَى كُلِّ حَالٍ، فِي الْحَرْبِ أَوْ فِي السَّلْمِ،  
وَيَجِبُ أَنْ يَكُونَ خَالِصاً لِّلَّهِ حَتَّى يَكُونَ مَقْبُولاً.

وَالإِنْسَانُ بِحَاجَةٍ إِلَى أَنْ يَعُودَ نَفْسَهُ عَلَى التَّضْحِيَةِ وَالإِنْفَاقِ،  
بَدءاً مِنْ القَلِيلِ، وَحَتَّى يَنْفِقَ الكَثِيرَ ثُمَّ يَبْلُغَ رِحْلَةَ العَطَاءِ  
بِالنَّفْسِ، وَالقِتَالِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ.

وَكَمَا الفِرْدُ كَذَلِكَ الأُمَّةُ الإِسْلَامِيَّةُ فَإِنَّهَا تَتَدَرَّجُ فِي العَطَاءِ  
حَتَّى تَتَمَيَّزَ بِالاسْتِقَامَةِ عَلَى الحَقِّ وَالتَّضْحِيَةِ بِكُلِّ غَالٍ وَنَفِيسٍ.

وَأحَدُ أَهَمِّ أسبابِ تَنَامِي رُوحِ التَّضْحِيَةِ عِنْدَ المُؤْمِنِ هُوَ  
طَلْبَةُ المَوْتِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، حَتَّى يَحْصَلَ عَلَى مَرْضَاةِ الرَّبِّ  
تَعَالَى، أَلَيْسَتْ الرِّسَالَةُ هِيَ هَدْفُ المُؤْمِنِ وَمِنْ أَجْلِهَا تَهْوَنُ  
كُلُّ صَعُوبَةٍ مَا دَامَتِ الرِّسَالَةُ تَنْتَصِرُ؟ وَمَا دَامَ المَوْتُ سُنَّةً

الله في عباده فإنَّ الموتَ الَّذي فيه ثمنٌ ويرجع على صاحبه  
بالجزاء الحسن على نيّته الصّادقة، وجزاء شكره لله هو أفضل  
من الموت بلا ثمن.

## ١

### الإنفاق سبيل التضحية

كما في الحرب، كذلك في السلم فتنةٌ وبلاء يتمثل في ضرورة الإنفاق، ومن الإنفاق الإعداد النفسي للحرب، وهنا يشير القرآن إلى الجانب النفسي من الإنفاق إذ يجب أن يكون خالصاً لله، حتى يربّي صاحبه على العطاء والتضحية، ذلك أنّ التضحية كأيّة صفة نفسيّة أُخرى، تحتاج إلى التدريب. فهي تنمو شيئاً فشيئاً، ابتداءً من التضحية بالمال القليل، ثمّ المال الكثير، ثمّ القتال والصّمود وهكذا.

لذا يحدّد القرآن هنا جهة الإنفاق لعلاقته الوثيقة بالتضحية بالنفس، وقلّما تحدّث القرآن عن التضحية بالنفس دون أن يقرنها بالتضحية بالمال.

والسؤال عن مادة الإنفاق، أي ما يُنفق، أجمَلَ الجواب فيه بعنوان جامع بمطلق الخير، ولكنه فصل في الحديث عن جهة الإنفاق لأنّه السّؤال الحكيم، فقال سبحانه: ﴿يَسْأَلُونَكَ

مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ ﴿١﴾، فكل خير يمكن إنفاقه، ولكن علينا التالي:

- **أولاً:** أن نحدّد وجهته وهي: ابتغاء مرضاة الله بعيداً عن الأهداف الماديّة أو الرّياء، وعلينا أن نتذكّر أنّ الله عليم، وهذا مدعاة للإخلاص والاستزادة من الخير.
- **ثانياً:** جهة الإنفاق ومن يُنفق عليه، إذ إنّ من صلاح العمل أن يكون مُناسباً ونافعاً؛ فيكون مرضياً من الربّ. وقدّم القرآن ذكر الوالدين ثمّ تدرّجت الآيات بحسب الأهميّة والأحقّيّة بإحسان المرء من غيرهما، فقال تعالى: ﴿وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَمَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾<sup>(١)</sup>.

الأمّة المسلمة تتميز بالاستقامة على الحقّ والتّضحية، رُغم صعوبتها، وها هو القتال مفروض عليها، بالرّغم من أنّه مكروه عند نفس الإنسان، قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾<sup>(٢)</sup>، إنّما الحقّ هو محور الإنسان الرّسالي

(١) سورة البقرة، الآية ٢١٥.

(٢) سورة البقرة، الآية ٢١٦.

والأمة المؤمنة لا الحب والكراهة المجردين، ذلك لأن الحق ينفع الإنسان، والباطل يضره، وبالرغم من أن النفس تميل إلى الباطل وتزعم أنه أصلح لها، ذلك لأنها تستعجل الخير المادي ولا تنظر إلى العاقبة، ومن هنا ندرك أن تقييم الأمور يبدأ بتجنب العواطف لمصلحة العواقب المستقبلية، وباعتداد ميزان العلم، والله هو الذي يحدد الحق، أما الناس فهم لا يعلمونه عادةً، لأنهم محبوبون عنه بالشهوات التي تزيّن لهم الباطل وتصوّره حقاً.

وبما أن الربّ تعالى عليم بما يصلح الإنسان، وبعواقب الأشياء، ورحيمٌ به؛ فإنه ينبغي على الإنسان: التسليم لوصاياه، لمصلحته.

## ٢

## التضحية من أجل الرسالة

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ (١٤٣) فكان الأجدر بكم أن تفوا بعهدكم، وتقتحموا غمار الموت باطمئنان نفسي؛ لأنها أمنيتمكم التي وصلتكم إليها حسب دعواكم.

ثم إن ارتباط المؤمن برسالة الله أشد من ارتباطه بالرسول، ولذلك فإن احتمال موت الرسول لا يؤثر فيه سلبياً، لأنه كان هناك رُسل من قبل قد ماتوا وبقيت من بعدهم الرسالة، إذن فالرسالة هي الهدف، وعلينا أن نضحّي بأنفسنا من أجل أن تبقى الرسالة ولا نفكر بأن موتنا يؤثر في الرسالة، بل -بالعكس- إن استشهادنا من أجل الرسالة سيدعم أمرها في المجتمع، قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً﴾، ولكن الصامدين الذين يتعلقون بالرسالة وحدها، هم المنتصرون أخيراً، لأنهم

شكروا نعمة الرّسالة بالإيمان بها والتّضحية من أجلها، قال تعالى: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾.

إذن: الرّسالة تنصّر بهذا الموت، والموت من أجلها يموت مادامت الرّسالة تنصّر بهذا الموت، والموت الهادف أفضل من الموت المحتوم، لأنّه موت بثمر، في حين أنّ الآخر موت بلا ثمن، وما دمنا نموت بآجالنا شئنا أم أبينا، فلماذا لا نموت لأفكارنا ومن أجل رسالتنا؟

ثمّ من يقول: إنّ من يدخل المعركة سيموت، وإنّ من يتخلّف عنها سيبقى؟ إنّها سُنّة الله في عباده، متى بلغ كتاب الشّخص أجله؛ مات في المعركة، أو على الفراش، قال سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾.

والفرق بين من يموت على الفراش، ومن يموت في المعركة، أن هذا يحصل على ثمن الآخرة دون ذلك ﴿وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا﴾، ويحصل المؤمن على جزاءين:

- **الأوّل:** جزاء نيّته الصّادقة، وعمله الصّالح (الاستشهاد).
- **الثّاني:** جزاء شكره لله، أي وفائه بمسؤوليّة نعم الله عليه، ومن أبرزها نعمة الحياة، حيث قدّمها لله، والله

يجزيه على ذلك، حيث قال ربنا تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

إن تكرار توجيه القرآن إلى جزاء الشكر في آيتين هنا، يأتي لمواجهة صفة الجزع والهلع التي تصيب الإنسان الساذج عندما تقع الحرب. فيتساءل:

لماذا الحرب؟ لماذا نقاتل؟ لماذا نقتل؟ بل لماذا نقتل الناس؟

القرآن يزرع في قلوب المؤمنين الاطمئنان، والشعور بالرضا بهذا الواقع، وتركيز النظر في الجوانب الإيجابية له، وذلك بالشكر لله على نعمه، والعمل بمسؤوليات تلك النعم.

وقد جاء في الأثر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ﴾، فإن المؤمنين لما أخبرهم الله بالذي فعل بشهائهم يوم بدر ومانزلهم من الجنة؛ رغبوا في ذلك فقالوا اللهم أرنا قتالاً نستشهد فيه، فأراهم الله إياه يوم أحد، فلم يثبتوا إلا من شاء الله منهم، فذلك قوله: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ﴾.

وجاء في تفسير علي بن إبراهيم في قصة أحد، وقتل من قتل، وأمر رسول الله ﷺ على القتلى فصلى عليهم ودفنهم في

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٤٣-١٤٥.

مضاجعهم: و كبر على حمزة سبعين مرة تكبيرة، قال: وصاح إبليس بالمدينة: قُتل محمد ﷺ، فلم يبق أحدٌ من نساء المهاجرين إلا خرج، وخرجت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تعدو على قدميها حتى وافت رسول الله ﷺ، وقعدت بين يديه، فكان إذا بكى رسول الله بكت، وإذا انتحب انتحبت<sup>(١)</sup>.

وعن أبي عبد الله ﷺ قال: «لَمَّا انْهَزَمَ النَّاسُ يَوْمَ أُحُدٍ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ انْصَرَفَ إِلَيْهِمْ بِوَجْهِهِ وَهُوَ يَقُولُ: أَنَا مُحَمَّدٌ، أَنَا رَسُولُ اللَّهِ، لَمْ أُقْتَلْ وَلَمْ أُمْتُ، فَالْتَفَتَ إِلَيْهِ فُلَانٌ وَفُلَانٌ، فَقَالَا: الْآنَ يَسْخَرُ بِنَا أَيْضًا وَقَدْ هُزِمْنَا، وَبَقِيَ مَعَهُ عَلِيُّ ﷺ وَسَمَّاكَ خَرَشَةَ أَبُو دُجَانَةَ (ره) فَدَعَاهُ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: يَا أَبَا دُجَانَةَ، انْصَرِفْ وَأَنْتَ فِي حِلٍّ مِنْ بَيْعَتِكَ، فَأَمَّا عَلِيُّ فَهُوَ أَنَا وَأَنَا هُوَ، فَتَحَوَّلَ وَجَلَسَ بَيْنَ يَدَيِ النَّبِيِّ ﷺ وَبَكَى، فَقَالَ: لَا وَاللَّهِ، -وَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ- وَقَالَ: لَا وَاللَّهِ لَا، جَعَلْتُ نَفْسِي فِي حِلٍّ مِنْ بَيْعَتِي إِنْ بَايَعْتُكَ فَإِلَى مَنْ انْصَرَفُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ إِلَى زَوْجَةٍ تَمُوتُ، أَوْ وَلَدٍ يَمُوتُ، أَوْ دَارٍ تَخْرُبُ، أَوْ مَالٍ يَفْنَى، وَأَجَلٌ قَدْ افْتَرَبَ؟ فَرَفَّقَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَزَلْ يُقَاتِلُ حَتَّى أَثْخَنَتْهُ<sup>(٢)</sup> الْجِرَاحَةُ»<sup>(٣)</sup>.

وجاء في الأثر أن علياً ﷺ كان يقول في حياة رسول

(١) انتحب: تنفس شديداً.

(٢) أثخنه الجراحة: أو هنته وضعفته.

(٣) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٣٩٨

الله ﷻ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يُقُولُ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ وَاللَّهُ لَا يَنْقَلِبُ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ، وَلَئِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ لَأَقَاتِلَنَّ عَلَى مَا قَاتَلَ<sup>(١)</sup> عَلَيْهِ حَتَّى أَمُوتَ، وَاللَّهُ إِنِّي لِأَخُوهُ وَابْنُ عَمِّهِ وَوَارِثُهُ، فَمَنْ أَحَقُّ بِهِ مِنِّي؟»<sup>(٢)</sup>.

(١) في «ط»: أو قتل قاتلت.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٣٩٨



الفصل الثاني:  
**لماذا نضّي؟**





## خلاصة الفصل الثاني

التّضحية قيمة معنويّة عند البشر أجمع، ولا يوجد لها حدود ما دامت في سياقها، وهكذا تصبح التّضحية مقدّسة عندما ترتبط بالأهداف المقدّسة، ويصبح أصحابها قدوةً ورمزاً لهذه القيمة، وترى الآخرين يسعون للوصول إلى مستواهم.

ولكن هذه القيمة العظيمة تعرّضت للتّشويه من قبل بعض الأقسام حتّى أنّهم حرّفوا وغيّروا أهدافها.

لقد كان النبيّ إبراهيم عليه السلام مثلاً بارزاً في التّضحية، حيث أراد التّضحية بابنه حينما أوحى إليه ذلك، ولعلّ ذلك كان درساً في عدم التّضحية بالأبناء من أجل آلهة مزيفة حجراً كانت أو بشراً.



١

## لماذا أمر الله نبيّه إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه؟

لعلّ الله أمر إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه ثمّ عوّضه بالدّبح العظيم؛ ليقضي على هذه العادة الجاهليّة، ويبدّل بها سنّة إلهيّة حسنة، جرت لدى البشريّة إلى هذا اليوم، وهي ذبح الأنعام في منى عند الحج وفي غيرها، وذلك يبدو من هنا ومن حيث أراد ربّنا سبحانه أن يفدي نبيّه بالكبش جعل الحادث يمرّ بوقائع إعجازية عجيبة، فقد كانت السكّين تلتوي كلّما أدناها إبراهيم من رقبة ولده عليه السلام وكانت تفت الصّخرة لو ضربها، ولكنّها تعجز عن التّأثير في جلد رقبة إسماعيل الرّقيق بحدّها. ولهذه القصة عبرتان أساسيتان:

- **الأولى:** أنّ على الإنسان التّضحية بابنه، وبأفضل علاقاته من أجل الدّين، وفي سبيل الله.
- **الثّانية:** وأن يرفض من جهة أخرى التّضحية بأولاده من أجل الآلهة المزيّفة، حجراً كانت أو بشراً ممّن

يريدون بلوغ مآربهم وشهواتهم الرّخيصة على جسر  
من دماء شباب الأُمَّة وأفلاذ أكبادها.

إنّ مقاومة إبراهيم عليه السلام للانحراف الاجتماعي كان أمراً  
صعباً، وصار أعظم صعوبة حينما جعل الله الطّريقة لمقاومته  
هو ذبح أعزّ النَّاس عليه وهو ابنه عليه السلام، وقد وصف الله هذا  
الامتحان بقوله: ﴿إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ﴾<sup>(١)</sup>، وإنّما سُمّي  
مُبين لأنّه يكشف مستوى الإيمان، ويبين حقيقة الإنسان.

وبالفعل كشف لنا هذا الامتحان مدى إخلاص النّبِيِّ  
إبراهيم عليه السلام وتسليمه لله. هو وولده الذي فداه الرّب  
بذبح من عنده تنزّل به جبريل الأمين، قال سبحانه:  
﴿وَقَدَيْتَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾، وبهذا الذّبح سنّ عليه السلام سنّة  
سار عليها المؤمنون إلى اليوم، فهم يذبحون الهدّي بمنى،  
وفي أنحاء العالم كافّة اقتداء به، ولعلّه لذلك سُمّي عظيماً.  
بل لعلّه - كما هو مروى<sup>(٢)</sup> في بيان الذّبح العظيم وجهة  
عظمته - السّبط الشّهيد الإمام الحسين بن عليّ عليه السلام الذي  
ذبح على النّهر عطشاناً بكربلاء فداءً لدين الله، ومقاومة  
للجاهليّة الأمويّة.

(١) سورة الصافات، الآية ١٠٦.

(٢) نور الثقلين، ج ٤، ص ٤٢٩.

وكرامة لإبراهيم الخليل في الدنيا قبل الآخرة، جعل الله له ذكراً حسناً عند البشريّة باختلاف مذاهبها وعقائدها، ولخصّ ربّنا هذه الكرامة في كلمة واحدة هي: السّلام على إبراهيم عليه السّلام، وقال تعالى: ﴿وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ ﴿١٧٨﴾ سَلَامٌ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ﴾<sup>(١)</sup>.

ومّا تجدر الإشارة إليه أنّ الاستحباب الشرعي في السّلام على الأنبياء والصّالحين يقتضي تقديم الصّلاة على محمّد وآله عليهم السّلام ثمّ يذكر الطّرف المراد ذكره. فيقول الذي يريد الصّلاة على النبيّ عيسى: على نبينا وآله وعليه الصّلاة السّلام، إلّا نبيّ الله إبراهيم كما قيل، فإنّ المُستحب ذكره أولاً ثمّ الثناء على نبينا وآله، فتكون جملة القول: (على إبراهيم وعلى نبينا وآله الصّلاة والسّلام).

عن الفضل بن شاذان، قال: سمعت الرّضا عليه السّلام يقول: «لَمَّا أَمَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِبْرَاهِيمَ عليه السّلام أَنْ يَذْبَحَ مَكَانَ ابْنِهِ إِسْمَاعِيلَ الْكَبْشَ الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَيْهِ، تَمَنَّى إِبْرَاهِيمُ عليه السّلام أَنْ يَكُونَ قَدْ ذَبَحَ ابْنَهُ إِسْمَاعِيلَ عليه السّلام بِيَدِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُؤْمَرْ بِذَبْحِ الْكَبْشِ مَكَانَهُ، لِيَرْجِعَ إِلَى قَلْبِهِ مَا يَرْجِعُ إِلَى قَلْبِ الْوَالِدِ الَّذِي يَذْبَحُ أَعَزُّ وُلْدِهِ عَلَيْهِ بِيَدِهِ فَيَسْتَحِقَّ بِذَلِكَ أَرْفَعَ دَرَجَاتٍ أَهْلِ الثَّوَابِ عَلَى الْمَصَائِبِ.

(١) سورة الصافات، الآيات ١٠٨ - ١٠٩.

فَأَوْحَى اللَّهُ تَعَالَى إِلَيْهِ: أَفَهُوَ أَحَبُّ إِلَيْكَ أَمْ نَفْسُكَ؟ قَالَ: بَلْ هُوَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي.

قَالَ: فَوُلْدُهُ أَحَبُّ إِلَيْكَ، أَمْ وُلْدُكَ؟ قَالَ: بَلْ وُلْدُهُ. قَالَ: فَذَبْحُ وُلْدِهِ ظُلْمًا عَلَى أَيْدِي أَعْدَائِهِ أَوْجَعُ لِقَلْبِكَ، أَوْ ذَبْحُ وُلْدِكَ بِيَدِكَ فِي طَاعَتِي؟ قَالَ: يَا رَبِّ، بَلْ ذَبْحُ وُلْدِهِ ظُلْمًا عَلَى أَيْدِي أَعْدَائِهِ أَوْجَعُ لِقَلْبِي. قَالَ: يَا إِبْرَاهِيمَ، فَإِنَّ طَائِفَةً تَزْعُمُ أَنَّهَا مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ سَتَقْتُلُ الْحُسَيْنَ ابْنَهُ مِنْ بَعْدِهِ ظُلْمًا وَعُدْوَانًا كَمَا يُذْبَحُ الْكَبْشُ وَيَسْتَوْجِبُونَ بِذَلِكَ سَخَطِي.

فَجَزَعَ إِبْرَاهِيمَ عليه السلام لِذَلِكَ وَتَوَجَّعَ قَلْبُهُ وَأَقْبَلَ يَبْكِي فَأَوْحَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَيْهِ: يَا إِبْرَاهِيمَ، قَدْ فَدَيْتُ جَزَعَكَ عَلَى ابْنِكَ إِسْمَاعِيلَ لَوْ ذَبَحْتَهُ بِيَدِكَ بِجَزَعِكَ عَلَى الْحُسَيْنِ وَقَتْلِهِ، وَأَوْجَبْتُ لَكَ أَرْفَعَ دَرَجَاتٍ أَهْلِ الثَّوَابِ عَلَى الْمَصَائِبِ، وَذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ﴾<sup>(١)</sup>.<sup>(٢)</sup>

(١) سورة الصافات، الآية ١٠٧.

(٢) الخصال، ج ١، ص ٥٨ - تفسير البرهان، ج ٤، ص ٦١٨.

## ٢

### سخافة التّضحية بالأبناء

#### من أجل أهداف تافهة

لعل النبي إبراهيم عليه السلام جاء لكي ينسف عادة جاهلية كانت شائعة ذلك اليوم -حسبما قال البعض- وهي ذبح الأبناء أمام الأصنام تقرباً لها، وما كانت هذه العادة مقتصرة على أرض كنعان وحدها، ففي مصر أيضاً كانوا ينتخبون ملكة الجمال من بين بناتهم ليلقوا بها مع بداية الربيع في النهر الذي كانوا يقدّسونه؛ لتذهب ضحية وفق عقيدة جاهلية تقول: بأنّ إله البحار يريد أن يتزوَّج، فلا بدّ أن نختار له أجمل بناتنا، لكي تهدأ المياه ولا يحدث فيضان يخرب بيوتنا، ويهلك مزارعنا.

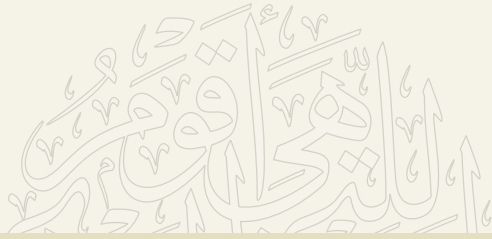
وهذه العادات ليست بعيدة عن واقعنا المعاصر، لأنّها مهما اختلفت في ظاهرها تلتقي في نقطة مركزية واحدة؛ هي التّضحية بالأبناء من أجل الأهداف التّافهة.





الفصل الثالث:  
**فوائد التّضحية**





## خلاصة الفصل الثالث

قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ﴿٧﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾<sup>(١)</sup>، هكذا تعود التّضحية بمنافع كثيرة للأمة، مثل:

- الحفاظ على الإنجازات الرّساليّة في مواجهة الأعداء.
  - تميّز صف المؤمنين عن المنافقين.
  - تربيّ المقاتلين على الجديّة والطّاعة، وتقديم مصلحة الأمة على المصالح الخاصّة.
- ثمّ إنّ اصطفاة المؤمنين إلى بعضهم يُساهم في التّضحية، ذلك أنّ الإنسان لا يقدر على الصّمود أمام تحدّيات الزّمن، وتحقيق النّصر لوحده إلاّ عندما يكون صفّاً كالبنّيان المرصوص.

(١) سورة الزلزلة، الآيات ٧ - ٨.

ولذلك شجّع الإسلام على القتال صفّاً، ولعلّ التجمّعات  
الإيمانيّة فُرصة مُتاحة لمثل هكذا انتشار.

## ١

### التّضحية حصن المكاسب

إنّ المكاسب الرّسالية بحاجة إلى قوّة تحافظ عليها، ومن دون الاستعداد للتّضحية في سبيلها، فإنّها سوف تتعرّض للخطر من قبل الأعداء، إذ إنّهم لا يقبلون من المسلمين مجرّد كفّ اليد عن الحرب، بل يريدون منهم العودة إلى الجاهليّة التي أنقذهم الله منها، وفي تلك خسارة لا تعوّض للأمة، قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾﴾، أي إنّكم إذا عدتم إلى الورااء فقد عدتم إلى حيث الخسارة والضّرر.

إنّما الطّاعة لله وحده، ولا خوف من الكافرين؛ لأنّ الله سينصر من ينصره وهو خير النّاصرين، قال تعالى: ﴿بَلْ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾<sup>(١)</sup>.

والسّؤال: كيف ينصر الله عباده المؤمنين؟

(١) سورة آل عمران، الآية ١٥٠.

الجواب: إن الله قد ينصر عباده بإلقاء الرعب في قلوب المشركين، ولسبب بسيط هو شركهم بالله، ذلك أن الشرك يعني تقديس قيمة مادية من دون الله، كقيمة المال، أو الجاه، أو الأرض، وفي الواقع هذه القيم لا تُقدّس لذاتها، بل لأنها مُتّصلة بالذات البشريّة. فالرجل الذي يقُدّس أرضه، إنّما يقُدّس ذاته أولاً، ثمّ يقُدّس أقرب مكان لذاته، وهو أرضه، كذلك الذي يقُدّس المال، فإنّما يقُدّس ذاته، ولأنّ المال يخدم ذاته فهو يقُدّسه وهكذا.

فالشرك يأتي نتيجة حب عميق للذات، وتمحور كامل حولها. وهذا يؤدّي بالطبع إلى الخوف والجبن، أمّا المؤمن فهو يخلص عبادته لله، بعد ما يتحرّر من حب الذات (النفس)، قال الله سبحانه: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

بينما المؤمنون لا يخشون شيئاً، لأنّهم لا يقدمون ذاتهم على سائر الأمور، ولا يخافون عليها، ولأنّ مصيرهم إلى الجنة، وهي خير مقام للمؤمنين.

وقد ورد في الحديث أنّ الكفار دخلوا مكّة كالمهزمين مخافة

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٤٩ - ١٥١.

أن يكون لرسول الله ﷺ وأصحابه الكثرة عليهم، جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «فُضِّلْتُ بِأَرْبَعٍ: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ يَسِيرٌ بَيْنَ يَدَيَّ»<sup>(١)</sup>.

(١) تفسير نور الثقلين، ج ١، ص ٤٠٣، وفي نفس المصدر قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيتُ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهَا أَحَدٌ قَبْلِي: جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهْرًا، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ».

عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ حديث طويل يقول ﷺ فيه: «قَالَ لِي اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ: وَنُصِرْتُكَ بِالرُّعْبِ الَّذِي لَمْ أَنْصُرْ بِهِ أَحَدًا قَبْلَكَ».

## ٢

## التَّضْحِيَّةُ وَمَنَافِعُهَا الْكُبْرَى

ثُمَّ إِنَّ لِلتَّضْحِيَّةِ مَنَافِعَ أُخْرَى لِلأُمَّةِ، يذَكِّرُنَا الْقُرْآنُ بِهَا بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

بالتدبر في هذه الآية الكريمة نستفيد بصائر في فوائد التَّضْحِيَّةِ، وهي ثلاثة:

- **ألف:** التَّضْحِيَّةُ تفرز المؤمنين عن المنافقين، ففي بداية انطلاقة الرِّسَالَةِ قد يؤمن بها جماعة؛ طمعاً في أمتها سوف تنتصر سريعاً، فيحصلون على مغانم مجانيَّة، أو أنهم كانوا مُستأثرين من الوضع فاندفعوا نحو الرِّسَالَةِ مدفوعين بتيار الإحساس السَّاذج، أو كانوا يحبِّون قائد الرِّسَالَةِ فانتموا إليها لذلك، أو عشرات من الأسباب الأخرى غير الإيمان الصادق.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤٠.

فوجود هذه الطّائفة في الأُمَّة يسبّب لها الضّعف، وربّما الانهيار في النّهاية، حيث تنتشر فيها المصلحيّة، والأنانيّة، والفوضويّة، وتنتهي الأُمَّة سريعاً، ولا يمكن الفوز إلاّ بتعرّض الأُمَّة للتّضحيات، فيعرف المؤمنون عن غيرهم، قال الله سبحانه: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

• **باء:** الحرب مدرسة المقاتلين، تربيهم على الجديّة، والطّاعة، والتفكّر، وتقديم مصلحة الأُمَّة على المصالح الخاصّة، وتعلّمهم الصّراحة، والفكر العقلاني وهكذا.

وهذه الصّفات ضروريّة للأُمَّة الرّساليّة، التي تريد أن تقود الأمم الأخرى. ولنفترض المجتمع الجاهلي في الجزيرة -مثلاً- كيف كان يمكنه أن يقود العالم، وهو غارق إلى أذنيه في الفوضى، والجهل، والأنانيّة و..؟ إنّه كان بحاجة إلى مدرسة تربويّة تخرّج القادة. وكانت الحرب بما فيها من تضحيات، هي المدرسة التي خرّجت قادة المستقبل، وحسب التعبير القرآني ﴿شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾<sup>(١)</sup>.

(١) سورة البقرة، الآية ١٤٣.

وقال ربنا سبحانه: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ولذلك فهو بدوره لا يظلم أحداً، وإذا أعطى النصر والتقدم فبعد إثبات الأمة لجدارتها، عن طريق التضحيات السخية. وإلا فقد كان ظالماً -حاشا- لتلك الأمة المغلوبة.

• **جيم:** ثم إن قلوب المؤمنين ليست طاهرة بالكامل من الريب في الرسالة، والشك في تعاليمها، فهي بحاجة إلى نار تطهرها، والتضحيات هي تلك النار، ذلك أن الإنسان الذي ضحى من أجل شيء فسوف يتمسك به، بعكس الذي حصل عليه مجاناً وبلا تضحية، إنك تجد التاجر أحرص على ماله من ابنه الذي يرثه بغير تعب، كذلك المؤمن المضحى يكون إيمانه أقوى من غيره، وقال ربنا تعالى: ﴿وَلِيَمِخَصَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

الكفار هم المعاندون للحق، المخالفون لتقدم الأمة، الذين يفضلون مصالح قومهم، أو أهواء أنفسهم على مصلحة الأمة، إنهم عقبات لا يمكن معالجتها، إنما يجب تصفيتهم بالكامل، ولكن كيف يمكن للأمة أن تتعرف على هذه العناصر، وتمييزها من العناصر

المتعلّقة بها، أو الخاضعة لها لضعف أو عاطفة؟ وكيف يحقّ للرّسالة أن تقتل النّاس، بدعوى أنّهم يشكّلون عقبة للمستقبل؟ كيف يمكن تبرير ذلك للجماهير؟ أمّا إذا وقعت المجابهة السّاخنة، وأخذت هذه العناصر تشكّل تهديداً خطيراً للأمة، فإنّ الأمة تجد المبرّر الكافي للحرب والتّصفية، كما أنّ المجابهة سوف تفرز العناصر الكافرة فعلاً، عن الأخرى المخدوعة بها. كما تُساهم في تصفية العناصر المعاندة التي تقف عقبة في طريق تقدّمها. وهذا ما يسمّيه القرآن بالمحق، يقول سبحانه: ﴿وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٤١.

## ٣

## كيف نجعل من التجمعات البشرية وسيلة إلى التّضحية؟

قال ربّنا سبحانه: ﴿لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرْجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرْجٌ﴾<sup>(١)</sup>.

قال بعض المفسرين: إنّ النّاس كانوا يتحرّجون من التّعامل مع هذه الطّوائف الثلاث في الجاهليّة؛ لأنّهم كانوا يعتقدون أنّ الله قد غضب على من ابتلي بهذه الحالات، فيبتعدون عنهم، وجاءت هذه الآية لتبيّن الحقيقة بأنّ الله لم يغضب على هؤلاء، بل من الصّوري معاشرتهم بالإحسان.

جاء في الرّواية المأثورة عن الإمام الباقر عليه السلام: «أَنَّ أَهْلَ الْمَدِينَةِ قَبْلَ أَنْ يُسَلِّمُوا كَانُوا يَعْتَرِلُونَ الْأَعْمَى وَالْأَعْرَجَ وَالْمَرِيضَ كَانُوا لَا يَأْكُلُونَ مَعَهُمْ، وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ فِيهِمْ تَيْهٌ وَتَكْرُمٌ، فَقَالُوا: إِنَّ الْأَعْمَى لَا يُبْصِرُ الطَّعَامَ، وَالْأَعْرَجُ لَا يَسْتَطِيعُ الرِّحَامَ عَلَى الطَّعَامِ،

(١) سورة النور، الآية ٦١.

وَالْمَرِيضَ لَا يَأْكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الصَّحِيحُ، فَعَزَّلُوا لَهُمْ طَعَامَهُمْ عَلَى نَاحِيَةٍ، وَكَانُوا يَرَوْنَ أَنَّ عَلَيْهِمْ فِي مُوَآكَلَتِهِمْ جُنَاحاً، وَكَانَ الْأَعْمَى وَالْمَرِيضُ يَقُولُونَ: لَعَلَّنَا نُؤْذِيهِمْ فِي مُوَآكَلَتِهِمْ. فَلَمَّا قَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ سَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ؛ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾<sup>(١)</sup>.

ولعلنا نستوحي من السياق أيضاً أنّ نفي الحرج هنا: يعني جواز الأكل، فيكون المفهوم من الآية ليس على الأعمى حرج، ولا على الأعرج حرج، ولا على المريض حرج، أن يأكل من بيوت الناس، أمّا أنتم فليس عليكم حرج أن تأكلوا من بيوتكم، أو بيوت أقاربكم.

والحكمة في ذلك: أن هؤلاء هم العناصر الضعيفة الذين يعجزون عادة عن كسب رزقهم، فعلى الأصحاء كفالتهم، والسّماح لهم بالدخول إلى بيوتهم للطعام، وبرهم.

قال الله تعالى: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أُمَّهَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ إِخْوَانِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخَوَاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَعْمَامِكُمْ أَوْ بُيُوتِ عَمَّاتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ أَخْوَالِكُمْ أَوْ بُيُوتِ خَالَاتِكُمْ﴾<sup>(٢)</sup>، حيث تذكر

(١) تفسير القمي، ج ٢ ص ١٠٨ - بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ١٤.

(٢) سورة النور، الآية ٦١.

هذه الآية بالتفصيل البيوت التي لا حرج على الإنسان في دخولها والأكل منها.

ويبدو أنها ليست في مقام إعطاء الإذن فحسب، بل في مقام التشجيع على ذلك أيضاً، فربما يتحرج الإنسان من الدخول إلى بيوت أقاربه أو معارفه من الأصدقاء، فيرفع النص هذا الحرج، لتنمو الألفة والمحبة بين أبناء الأسر، وكما جاء في كتاب الكافي: عن عبد الرحمن بن الحجاج قال: أكلنا مع أبي عبد الله عليه السلام فأوتينا بقصعة من أرز فجعلنا نعذر فقال عليه السلام: «**مَا صَنَعْتُمْ شَيْئاً، إِنَّ أَشَدَّكُمْ حُبّاً لَنَا؛ أَحْسَنُكُمْ أَكْلاً عِنْدَنَا**»، قال عبد الرحمن: فرفعت كسحة المائدة فأكلت، فقال عليه السلام: «**نَعَمْ الْآنَ**»<sup>(١)</sup>.

لأنّ الجلوس إلى مائدة الطعام في البيت يفتح القلوب على بعضها، ويمتد العلاقات، وبالتالي يفتح طريق التعاون بين أفراد المجتمع.

فكم من تعاون بدأ من جلسة طعام، حتى النشاطات الخيرية، والحركات الرسالية كثيراً ما تنطلق من مثل هذه المناسبات، فحينما تقترب النفوس، وترتفع الحُجب بين الإنسان وأخيه وبعيداً عن أنظار الناس وأسماعهم، هنالك

(١) الكافي، ج ٦، ص ٢٧٨.

يبدأ الإنسان بالحديث عمّا يعانيه، فيبث همومه ومشاكله لأخيه، وبالتالي تتوفر الأجواء الملائمة للمناقشة وتبادل الأفكار ممّا يكون مناسباً لجمع الإمكانيات والكفاءات المختلفة وإزالة الصعوبات، فربّما جلس أناس مؤمنون لبعضهم كي يأكلوا، ولكنهم قاموا من على مائدة الطّعام لينجزوا أعمالاً عظيمة في سبيل الله.

إنّ التجمعات الأسريّة في الإسلام هي اللبّات الأولى والأساسيّة في صرح الصمود والتّضحية في المجتمع الإسلامي، فلا يستطيع الإنسان الصّمود أمام تحديات الزمن وعنجهيّة الطغاة، وتحقيق النّصر لوحده، ولكنّه يستطيع ذلك حينما يجلس إلى أقاربه ومعارفه ويتفاعل معهم، حيث يشعر بالقوّة؛ فيندفع بحماس لمواجهة كلّ التحديات.

ولما في الجلوس إلى الموائد من فوائد اجتماعيّة عظيمة، نجد الإسلام يشجّع عليها، ولو كانت العلاقات الاجتماعيّة في البلاد التي يحكمها الطّاغوت متينة وفعّالة؛ لشلّ سيف الطّغيان فيها، لأنّ الطّاغوت حينئذ لا يضرب واحداً واحداً، وإنّما يضرب أسرة أسرة، والأسرة القويّة المتفاعلة صخرة صمّاء لا تتفتّت. فلو وقف المجتمع بأسره المتعاونة مع بعضها عبر قياداتها؛ لسقط الطّاغوت المتسلّط على رقاب النّاس بإذن الله تعالى.

ثم بيّن القرآن الكريم حكماً آخرًا يُعطي العلاقات الاجتماعية حرارة ودفئًا، يقول ربنا: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ﴾، فإذا أعطى المالك مفتاح بيته لأحد، يجوز له تناول الطعام الذي فيه - بالفحوى - لما ينبئ ذلك عن رضى قلبي.

جاء في التاريخ: أن رسول الله ﷺ آخى بين أصحابه فكان بعد ذلك إذا بعث أحداً من أصحابه في غزاةٍ أو سريةٍ يدفع الرجل مفتاح بيته إلى أخيه في الدين، ويقول: خذ ما شئت وكل ما شئت، وكانوا يمتنعون من ذلك حتى ربما فسد الطعام في البيت؛ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾ يعني حضر أو لم يحضر إذا ملكتم مفاتحه<sup>(١)</sup>.

وأعطى الإسلام الصديق الوفي حكم القريب فقال: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾.

وجاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «مِنْ عَظْمِ حُرْمَةِ الصَّدِيقِ؛ أَنْ جَعَلَهُ مِنَ الْأَنْسِ وَالثَّقَةِ، وَالْإِنْسَاطِ وَطَرِحِ الْحِشْمَةِ، بِمَنْزِلَةِ النَّفْسِ، وَالْأَبِ، وَالْأَخِ، وَالْإِبْنِ»<sup>(٢)</sup>.

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً﴾

(١) وسائل الشيعة، ج ٢٤ ص ٢٨٣ - تفسير القمي، ج ٢ ص ١٠٩.

(٢) تفسير نور الثقلين، ج ٢، ص ٦٢٧ - تفسير جوامع الجامع للطبرسي، ج ٢، ص ٦٣٥.

فبإمكان الأسرة أن تجتمع بأكملها حول مائدة الطّعام، أو يحضر أفراد منها فقط كأن يأكل الأخ مع أخيه والصديق مع صديقه.

وقال سبحانه: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾، نستلهم من هذه أنه يجب أن تكون القلوب مُتحاببة متألّفة، ومُجنّدة في جيش واحد، والسّلام هو رمز تألف القلوب، وعندما يسلم المرء على أخيه، فإنّه يربط نفسه معه برابطة المحبّة، ويتعهد بأن يكون مُسالماً له في حضوره وغيابه.

لذلك يؤكّد القرآن ما قاله سبحانه: ﴿فَسَلِّمُوا عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾ أي إنكم تشكّلون نفساً واحدة، ﴿تَحِيَّةً مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾، فحينما يقول الإنسان لأخيه: السّلام عليكم فكأنه يقول الله أيضاً: السّلام عليك أيها المجتمع الذي يتسلم أفراده، ويتبادل أبنائه السّلام، إني سوف أمنحكم السّلام تحيّة، فقال سبحانه: ﴿مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾ وهذا السّلام يسبّب البركة؛ أي التّموا الاجتماعي والمعنوي، الذي يختلف عن التّموا المادّي لدى المترفين، أو الحكّام الطّغاة، بل هو تكامل طيّب ومستقبله عظيم.

قال ربّنا عزّوجلّ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ»<sup>(١)</sup>، ولعلنا نجد أنه كلما كانت الأحكام القرآنية حساسة وعميقة، وجدنا بعدها مباشرة مثل هذه الكلمات: لعلكم تعقلون، لعلكم تتفكرون، لحاجة الأمر إلى التعقل والتفكير حتى يعرف المؤمنون أهميته، وأنه لا يمكن فهم ذلك إلا إذا استشار الإنسان عقله، وقده زناد أفكاره. وهنا مجموعة روايات شريفة تعرفنا بأبعاد معاني الآية:

- عن محمد الحلبي، قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن هذه الآية: ﴿وَلَا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ إلى آخر الآية، قلت: ما يعني بقوله: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾؟ قال عليه السلام: «هُوَ وَاللَّهِ الرَّجُلُ يَدْخُلُ بَيْتَ صَدِيقِهِ، فَيَأْكُلُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ»<sup>(٢)</sup>.
- وعن أبي عبد الله عليه السلام، في قول الله عز وجل: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتُمْ مَفَاتِحَهُ أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾، قال: «هُؤُلَاءِ الَّذِينَ سَمَى اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي هَذِهِ الْآيَةِ، تَأْكُلُ بِغَيْرِ إِذْنِهِمْ مِنَ التَّمْرِ وَالمَأْدُومِ، وَكَذَلِكَ تَطْعَمُ الْمَرْأَةُ مِنْ مَنْزِلِ رَوْحِهَا بِغَيْرِ إِذْنِهِ، وَأَمَّا مَا خَلَا ذَلِكَ مِنَ الطَّعَامِ، فَلَا»<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة النور، الآية ٦١.

(٢) البرهان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ١٠١.

(٣) البرهان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ١٠١.

- وعن زرارة، قال: سألت أحدهما عن هذه الآية: ليس عليكم جناح ﴿أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ﴾ الآية، قال: «لَيْسَ عَلَيْكَ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمْتَ أَوْ أَكَلْتَ مِمَّا مَلَكَتْ مَفَاتِحَهُ مَا لَمْ تُفْسِدْهُ»<sup>(١)</sup>.
- وعن أبي عبد الله عليه السلام، في قول الله عز وجل: ﴿أَوْ مَا مَلَكَتْهُم مَفَاتِحُهُ﴾، قال: «الرَّجُلُ يَكُونُ لَهُ وَكَيْلٌ يَقُومُ فِي مَالِهِ، فَيَأْكُلُ بِغَيْرِ إِذْنِهِ»<sup>(٢)</sup>.
- وعن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «لِلْمَرْأَةِ أَنْ تَأْكُلَ، وَأَنْ تَتَصَدَّقَ مِنْ بَيْتِ زَوْجِهَا»<sup>(٣)</sup>، وللصديق أَنْ يَأْكُلَ مِنْ بَيْتِ أَخِيهِ، وَأَنْ يَتَصَدَّقَ»<sup>(٤)</sup>.
- عن أبي الصباح، قال: سألت أبا جعفر عليه السلام عن قول الله عز وجل: ﴿فَإِذَا دَخَلْتُمْ بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ الآية، قال: «هُوَ تَسْلِيمُ الرَّجُلِ عَلَى أَهْلِ الْبَيْتِ حِينَ يَدْخُلُ، ثُمَّ يَرُدُّونَ عَلَيْهِ، فَهُوَ سَلَامُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ»<sup>(٥)</sup>.

(١) الكافي، ج ٦، ص ٢٧٧.

(٢) البرهان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ١٠١.

(٣) (من بيت زوجها) ليس في «ج» و المصدر.

(٤) البرهان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ١٠١.

(٥) البرهان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ١٠٢.

- وفي رواية أبي الجارود، عن أبي جعفر عليه السلام يقول: «إِذَا دَخَلَ الرَّجُلُ مِنْكُمْ بَيْتَهُ، فَإِنْ كَانَ فِيهِ أَحَدٌ، يُسَلِّمُ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ أَحَدٌ، فَلْيَقُلْ: السَّلَامُ عَلَيْنَا مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، يَقُولُ اللَّهُ: ﴿تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً﴾»<sup>(١)</sup>.

(١) البرهان في تفسير القرآن، ج ٤، ص ١٠٣.



الفصل الرابع:  
**دروس في التّضحية**





## خلاصة الفصل الرابع

سجّل لنا ربّنا في القرآن الكريم الموقف الجليل للأنصار، ليكون مثلاً لما يفعله الدين الإسلامي بالنفوس، وليبيّن للأمة الإسلامية سر انتصاراتها في التاريخ وسبيلها إلى العودة إلى ذلك، وأن الرّعين الأوّل من المخلصين إنّما قادوا العالم يومئذ بهذه الرّوح الإيمانيّة السّامية روح التّضحية والفداء، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾<sup>(١)</sup>، حيث ضحّوا بأموالهم، وبيوتهم، ومستقبلهم المادّي من أجل الدّين، وحبّاً في الانتفاء إليهم، وضم جهودهم، وطاقتهم إليهم لتقوية مجتمع الحق.

وفي سورة العاديات يقسم الربّ سبحانه وتعالى بالعاديات و... إكراماً له (لأنّه غاية الجود والشّهامة كما الإيثار) يبيّن

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

السِّيَاقُ أَنَّ الطَّبِيعَةَ الأَوَّلِيَّةَ لِلإِنْسَانِ هِيَ البِخْلُ، وَلَكِنْ مَتَى يَفْقَهُ حَقًّا خَطَأَهُ؟ عِنْدَمَا تَتَكشَّفُ القُبُورُ عَمَّا سَتَرْتَهَا مِنْ أَجْسَادِ، وَتَتَكشَّفُ الصُّدُورُ عَمَّا خَبَّأْتَهَا مِنْ أَسْرَارِ، يَوْمئِذٍ يَعْرِفُ الإِنْسَانُ أَنَّ رَبَّهُ خَيْرٌ بِهِ.

١

## عبر من إيثار الأنصار

بعد أن مكث النَّبِيُّ ﷺ في المدينة واستتبَّ له الأمر؛ تقرر أن يهاجر المؤمنون من مكَّة إليها، وحيث تواردوا أفواجاً استقبلهم الأنصار، وأوسعوا لهم صدورهم، ودورهم، وتقاسموا معهم الأموال وحتَّى الأزواج، ولكن الخط المنافق من أهل المدينة وغيرهم ما كان يرضيهم أن يحتضن الأنصار المهاجرين، فلمَّا أجلى المسلمون اليهود وقرَّر الرسول القائد ﷺ أن يعطي الفيء للمهاجرين؛ طفحت أحقادهم، واتَّخذوا الأمر فرصة سانحة ليلعبوا دورهم الخبيث، فمشوا في الصَّفوف بالشَّائعات ليضربوا زعامة النَّبِيِّ ﷺ الذي يكتنُّون له الحقد الدَّفين، باعتباره لم يكن من أهل المدينة، وذلك بالتَّشكيك في سلامة نيَّته، حيث اتَّهموه بأنَّه انحاز لقومه (المهاجرين) على حساب الأنصار، ومن جهة أخرى استغلَّوا القِسمة لهدف إيجاد الاختلاف والفرقة بين المؤمنين، بالذَّات باعتبار أنَّ الظَّاهر كان يمكن تجميعه لصالح التَّفرقة لاختلاف

المهاجرين والأنصار، وعموماً تتأسس سياسات التفرقة دائماً على المظاهر المادية كاللون، والمذهب، والقوميّة، والطائفيّة، وطالما أظهر المنافقون وعلى رأسهم عدو الله ابن أبي الأنصار أنهم يريدون خيرهم من وراء موقفهم، وطالما استثاروا فيهم الوطنيّة وشحّ النفس ليكسبهم، ولكنهم رفضوا ذلك لأنهم كانوا أصحاب البصيرة النافذة، والإيمان الرّفيح، والتّسليم المطلق لقيادة الحقّ.

أما الرّسول ﷺ فقد جمعهم وقال: «إِنْ شِئْتُمْ فَسَمْتُمْ لِلْمُهَاجِرِينَ مِنْ دُورِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَقَسَمْتُ لَكُمْ مِنَ الْغَنِيمَةِ كَمَا قَسَمْتُ لَهُمْ (أي أساوي بينكم)، وَإِنْ شِئْتُمْ كَانَ لَهُمُ الْغَنِيمَةُ، وَلَكُمْ دِيَارُكُمْ وَأَمْوَالُكُمْ (أي يخرجون من أموالكم ودوركم ويصير لهم الفيء خالصاً)، فَقَالُوا: لَا، بَلْ نَقْسِمُ لَهُمْ مِنْ دِيَارِنَا وَأَمْوَالِنَا، وَلَا نَشَارِكُهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ»<sup>(١)</sup>.

ف فشل المنافقون، وهكذا تنتصر كلّ أمة على محاولات التفرقة حينما تتبّع قائدها، وتلتزم بالقيم الحقّة، وتعيش فيما بينها الألفة والحقّ والإخاء، وقد سجّل ربّنا هذا الموقف الجليل كرامة للأنصار، وليكون نموذجاً على ما يصنعه الإسلام بالنّفوس، وليبين للبشريّة جيلاً بعد جيل، وللأمة

(١) بحار الأنوار، ج ١٩، ص ١٦١.

الإسلامية بالذات سر انتصاراتها في التاريخ وسبيلها إلى ذلك، وأن الرّعيّل الأوّل من المخلصين إنّما قاد العالم يومئذ بهذه الرّوح الإيمانيّة السّامية، فقال عزّ وجلّ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾<sup>(١)</sup> يعني الأجيال المؤمنة السّابقة من الأنصار، وقالوا في جواب سؤال: كيف يُنسب التبوّء للإيمان؟ أن معنى الآية: ﴿تَبَوَّءُوا الدَّارَ﴾، وأخلصوا الإيمان، أو اتّخذوا الإيمان وطناً، وتمكّنوا منه، مثلهم مثل سلمان لما سأله عن نسبه، فقال: أنا ابن الإسلام.

ثمّ تساءلوا: كيف؟

قال ربّنا: إنهم آمنوا قبل المهاجرين، أو لم يسبقوهم بالإيمان؟ ف قيل: ﴿مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ قبل قدوم المهاجرين، وقيل المعنى بعض الأنصار، أي أصحاب العقبة سبعون رجلاً تقدّم إيمانهم على إيمان بعض المهاجرين. كما قيل: على التّقدير السّابق أنّ ﴿قَبْلِهِمْ﴾ خاصّة تبوؤ الدّار، ومعلوم سبق الأنصار لذلك فهي دارهم، وهم الذين جعلوها داراً للإسلام.

فها هنا تقديم وتأخير. ولكن هذا يُخالف الظّاهر، ولا مانع من نسبة التبوّء للإيمان كما مرّ، أي اتّخذوه موطناً.

ويبدو لي أنّ المعنى أنّهم تبوؤوا دار الإيمان، فيكون معنى

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

الدار: التقارن كما لو قلنا: ركبت البحر والريح الهائجة، أي مقارناً مع هيجان الريح.

وقد اشتهر في الأدب الإسلامي التعبير بدار الإسلام، ولعله مستوحى من هذه الآية. فقد جاء في الحديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «وَالْإِيمَانُ بَعْضُهُ مِنْ بَعْضٍ وَهُوَ دَارٌ، وَكَذَلِكَ الْإِسْلَامُ دَارٌ وَالْكَفْرُ دَارٌ»<sup>(١)</sup>.

فيكون المعنى أتهم (الأنصار) الأسبق إلى تكوين التجمع الإيماني المتكامل الذي يصدق عليه أنه دار (دولة) الإسلام. فعلى هذا القبلية هنا بلحاظ دار الإيمان، حيث إنه بعد بيعة العقبة تشكلت نواة الدولة الإسلامية وبعد ذلك هاجر المهاجرون إليها.

وقال الله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ ونستوحى من الآية أنه إذا انتصر المؤمنون في بلد، وكونوا المجتمع الإسلامي فلا يعني أن الذين في تلك البلاد من المسلمين أفضل من غيرهم، ولا يجوز أن يستأثروا بالمكاسب، أو يفرضوا وصايتهم على غيرهم، كلاً.. فكل ما عند المؤمنين حتى أنفسهم ملك للإسلام، ولأهله الذين هم إخوانهم، وينبغي لهم ألا يأخذهم غرور الانتصار، أو العجب بالنفس، بل يفعلون

(١) الكافي، ج ٢، ص ٢٧.

كما فعل الأنصار، فلقد بلغ بهم الإيمان والحب لإخوانهم أن آثروهم على أنفسهم، لأنهم انتموا للإسلام ابتغاء فضل الله ورضوانه وليس بحثاً عن المكاسب المادية، ولأنهم يقدرّون ظروف إخوانهم المهاجرين، حيث ضحّوا بأموالهم، وبيوتهم، ومستقبلهم المادي من أجل الدين، وحباً في الانتفاء إليهم، وضم جهودهم وطاقاتهم إليهم لتقوية مجتمع الحقّ وجبهته.

## ٢

## علاقة الأجيال المؤمنة ببعضها

كيف يجب أن تكون علاقة الأجيال المؤمنة السابقة باللاحقة، والأنصار بالمجاهدين، والمتصرين بالحركات التي تسعى للانتصار فتهاجر إليهم؟

## أولاً: الحبّ القلبي الصادق:

فلا يرون اللاحقين بهم من سائر الفصائل الرّساليّة غرباء أو دخلاء، ولا يريدونهم أن يكونوا مجرد تابعين لهم، ولا أن يستثير وجودهم وتنافسهم، ولا حتى اختلافهم معهم؛ أي حقد وحسد، ولا أيّ لون من الحساسيات السلبيّة، لأنّ رابطتهم ببعضهم أكبر من كلّ ذلك. إنّها رابطة الإيمان والجهاد.

وهكذا يحدّد القرآن محور التّواصل بين فئات المؤمنين: الأنصار الذين سبقوا غيرهم في بناء التّجمّع الإيماني، والمهاجرين الذين تجرّدوا عن مصالحهم في سبيل الله، فيبين أنّ الحبّ هو ذلك المحور.

ولا يصل الإنسان إلى هذا المستوى الرفيع من الأخلاق إلا إذا تمكّن الإيمان من نفسه، فتجاوز شح نفسه (الأهواء والشّهوات، والمصالح) وتحرّر من أغلال الوطنيّة، والقوميّة، والعنصريّة، والطبقيّة، والحزبيّة، وأصبح مثلما قال الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ؛ فَهُوَ مِمَّنْ كَمَلَ إِيمَانُهُ»<sup>(١)</sup> بلى؛ إن الحب في الله من أوثق عرى الإيمان.

قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «وَدَّ الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ فِي اللَّهِ مِنْ أَكْثَرِ شُعَبِ الْإِيمَانِ»<sup>(٢)</sup>.

وقد اعتبر أئمة الهدى عليهم السلام الحب هو الدين، ويجب الإمام الصادق عليه السلام سائلاً سألته عن الحب: هل هو من الإيمان؟ فيقول: «يَا زِيَادُ، وَيْحَكَ، وَهَلِ الدِّينُ إِلَّا الْحُبُّ، أَلَا تَرَى إِلَى قَوْلِهِ ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، أَوَلَا تَرَى قَوْلَ اللَّهِ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله: ﴿حَبَبَ إِلَيْكُمْ الْإِيمَانَ وَرَزَيْتَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾، وَقَالَ: ﴿يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ﴾ فَقَالَ: الدِّينُ هُوَ الْحُبُّ، وَالْحُبُّ هُوَ الدِّينُ»<sup>(٣)</sup>.

(١) الكافي، ج ٢، ص ١٢٤.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ١٢٥.

(٣) وسائل الشيعة، ج ١٦، ص ١٧١.

وعنه عليه السلام قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَصْحَابِهِ: أَيُّ عُرَى الْإِيمَانِ أَوْثَقُ؟ فَقَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الصَّلَاةُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الزَّكَاةُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الصِّيَامُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْحَجُّ وَالْعُمْرَةُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: الْجِهَادُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: لِكُلِّ مَا قُلْتُمْ فَضْلٌ وَلَيْسَ بِهِ، وَلَكِنْ أَوْثَقُ عُرَى الْإِيمَانِ: الْحُبُّ فِي اللَّهِ وَالْبُغْضُ فِي اللَّهِ، وَتَوَالِي أَوْلِيَاءِ اللَّهِ، وَالتَّبَرِّي مِنْ أَعْدَاءِ اللَّهِ»<sup>(١)</sup>.

وكيف لا يحبّ المهاجرون، والمتصرون، والسابقون إلى الإيمان من يلحق بهم، وقد جاؤوا ليحققوا أهم أهدافهم وهو نصره الدين؟!!

وكلمة أخيرة: إنّ المؤمن الصادق محكوم بمعادلة التولي والتبري، وبالتالي فإنّ نسبة تبرّيه من الأعداء هي ذاتها نسبة تولّ للمؤمنين، قال الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾<sup>(٢)</sup>.

وإنّنا اليوم إذ نسعى من أجل المجتمع المسلم فلا بدّ أن نبدأ بأنفسنا، ونجعل تجمّعنا ربّانياً إلهياً، يدور على محور الحبّ في الله، والبغض في الله، حتّى يباركه الله من

(١) الكافي، ج ٢، ص ١٢٤.

(٢) سورة الفتح، الآية ٢٩.

فوق عرشه، ويرعاه بنصره وتأيدته. وهكذا بحيث كلما ازداد صراعنا مع أعداء الله شدةً وعُنفاً؛ ازدادنا تلاهماً وتماسكاً وانصهاراً في بوتقة التوحيد.

### ثانياً: التجرد عن الحسد للأحقيين بهم:

مهما أوتوا من شيء مادّي أو معنوي، فصدورهم صافية طاهرة، لا تنطوي على غلٍّ ولا حساسية تجاه إخوانهم، كما أنّها واسعة لا تضيق بتقدّمهم أو تقديمهم، لأنّهم معمورة بالإيمان، والواحد منهم متجرد عن ذاته للقيم، وللأمة كلّها، فلا يرى أنّ الدولة أو المغنم أو المناصب حكرأله أو لفريق دون آخر، إنّها هي للجميع، كما يرى أنّ تقدّم أيّ فرد أو جهة هو تقدّم له أيضاً.

قال سبحانه تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ

حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا﴾<sup>(١)</sup> لماذا؟

لأنّ الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والرأي للقيادة الرّسالية تقرّر ما تراه مناسباً، والحقّ لصاحب الكفاءة، وليست لأحد الوصاية في فضل الله وما له وما للأمة، فلماذا الحسد والتّقاتل على المكاسب والمراتب؟! إنّ المؤمنين يسعون بكلّ ما أوتوا لِدعم إخوانهم، ورفد

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

مسيرتهم لكي يتقدّموا ويعلو شأنهم، ثم يتعالى من خلاهم شأن الدين والأمة، وما يؤسف له اليوم أن نرى في الأمة فريقاً من مرضى القلوب الذين يجهدون بكل ما أوتوا من حول، وطول، ومكر، من أجل تحطيم كلّ قيادة ناشئة تبرز في الساحة، وترى في صدورهم ألف حاجة مما أوتي أولئك من الفضل والسمعة الحسنة.

وقد اتخذ الإسلام موقفاً صارماً من الحسد، حتى عدّله بالشرك والكفر والنفاق. قال الإمام الصادق عليه السلام: «يَقُولُ إبليسُ لِجُنُودِهِ: أَلْقُوا بَيْنَهُمْ (يعني المؤمنين)؛ الحَسَدَ والبَغْيَ فَإِنَّهُمَا يَعْدِلَانِ عِنْدَ اللَّهِ الشِّرْكَ»<sup>(١)</sup>.

وقال عليه السلام مُحذراً: «إِيَّاكُمْ أَنْ يَحْسُدَ بَعْضُكُمْ بَعْضاً؛ فَإِنَّ الْكُفْرَ أَضْلُهُ الْحَسَدُ»<sup>(٢)</sup>.

وقال: «إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغِيظُ وَلَا يَحْسُدُ، وَالْمُنَافِقُ يَحْسُدُ وَلَا يَغِيظُ»<sup>(٣)</sup>.

وقال الإمام الباقر عليه السلام: «إِنَّ الْحَسَدَ لِيَأْكُلَ الْإِيمَانَ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»<sup>(٤)</sup>.

(١) بحار الأنوار، ج ٧٢، ص ٢٧٨.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٢١٧.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٥٠.

(٤) الكافي، ج ٢، ص ٣٠٦.

وقال الرسول ﷺ: «أَلَا إِنَّهُ قَدْ دَبَّ إِلَيْكُمْ دَاءُ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلِكُمْ، وَهُوَ الْحَسَدُ، لَيْسَ بِحَالِقِ الشَّعْرِ، لَكِنَّهُ حَالِقِ الدِّينِ»<sup>(١)</sup>.

قال الله عز وجل لموسى بن عمران عليه السلام: «يَا بَنَ عِمْرَانَ لَا تَحْسَدَنَّ النَّاسَ عَلَى مَا آتَيْتَهُمْ مِنْ فَضْلِي، وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى ذَلِكِ، وَلَا تَتَّبِعْهُ نَفْسَكَ؛ فَإِنَّ الْحَاسِدَ سَاخِطٌ لِنَعْمِي، صَادٌّ لِقَسَمِي الَّذِي قَسَمْتُ بَيْنَ عِبَادِي»<sup>(٢)</sup>.

وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ﴾ يؤكد لنا أن الحساد هم أصحاب الصدور الضيقة، والقلوب المريضة. وأهم الحاجات التي يضمها الحاسدون في صدورهم هي: تحطيم إخوانهم، ولا ريب أنها سوف تتضخم فتراكم العقد في نفوسهم، وتدفعهم إلى سلوك اجتماعي خطير تجاه الآخرين، ولذلك جاء في الرواية عن الإمام الصادق عليه السلام: «لِلْحَاسِدِ ثَلَاثُ عَلَامَاتٍ: يَغْتَابُ إِذَا غَابَ، وَيَتَمَلَّقُ إِذَا شَهِدَ، وَيَسْمَتُ بِالْمُصِيبَةِ»<sup>(٣)</sup>.

ولك أن تتصور مجتمعاً متحاسداً يكاد يتمزق داخلياً،

(١) وسائل الشيعة، ج ١٥، ص ٣٦٨.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ٣٠٧.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٥١.

كيف يتسنى له أن يتقدّم حضاريّاً، وكيف يتتصر أمام  
التحدّيات الكبيرة.

### ثالثاً: الإيثار:

وهو علامة الإيمان، والمظهر الخارجي للحبّ  
الصّادق تجاه الإخوان، وقمّة التماسك في جبهة الإيمان،  
حيث التّفاني والتّضحية من أجل الغير لوجه الله،  
والمؤمن الصّادق هو الذي يقدّم نفسه للخطر؛ ليسلم  
الآخرون، ويؤخّرها عند المكاسب ليغنموا.

أوليس يبحث عن القمّة السّامقة من الإيمان والفرح  
التي تتمثل في الإيثار؟ بلى؛ وهو لا يقيم وزناً لحطام  
الدُّنيا حتّى يتقاتل عليه، أو يفرد به.

والأنصار لم يكونوا فقط أحبّوا إخوانهم المهاجرين،  
وتطهّروا من الحسد تجاههم، بل وآثروهم على  
أنفسهم، ووصلوا من الإيثار سنامه، حينما تنازلوا  
عن حظّهم من القسمة رغم حاجتهم الشّديدة، وقال  
ربّنا سبحانه: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ  
خَصَاصَةٌ﴾<sup>(١)</sup> فهم لم يجعلوا عوزهم وحاجتهم الشّديدة  
تبريراً لترك الإيثار، وقد اهتمّ أهل البيت عليهم السلام

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

بيان فضيلة الإيثار، والدعوة إليها، فقد روي عن الإمام الصادق عليه السلام أنه قال: «خياركم سَمَحَاؤُكُمْ وشراركم بُخْلَاؤُكُمْ، ومن خالص الإيمان البرّ بالإخوان والسَّعي في حوائجهم، وإنَّ البارَّ بالإخوان ليجبهُ الرَّحْمَنُ، وفي ذلك مَرْغَمَةٌ لِلشَّيْطَانِ، وتَرْخُجُ عَنِ النَّيْرَانِ، ودُخُولُ الْجَنَانِ. يَا جَمِيلُ، أَخْبِرْ بِهَذَا غُرَرَ أَصْحَابِكَ».

قلت: جعلت فداك، من غرر أصحابي؟

قال عليه السلام: «هُمُ الْبَارُونَ بِالْإِخْوَانِ فِي الْعُسْرِ وَالْيُسْرِ»، ثم قال: «يَا جَمِيلُ، أَمَا إِنَّ صَاحِبَ الْكَثِيرِ يَهُونُ عَلَيْهِ ذَلِكَ، وَقَدْ مَدَحَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي ذَلِكَ صَاحِبَ الْقَلِيلِ، فَقَالَ فِي كِتَابِهِ: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شَحْحَ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»<sup>(١)</sup>.

وجاء في حديث آخر مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام فيما رواه عنه أبان بن تغلب قال: سألته فقلت: أخبرني عن حقّ المؤمن على المؤمن، فقال عليه السلام: «يَا أَبَانَ، دَعُهُ لَا تَرِدْهُ»، قلت: بلى جعلت فداك، فلم أزل أردد عليه، فقال عليه السلام: «يَا أَبَانَ، تُقَاسِمُهُ شَطْرَ مَالِكَ».

ثم نظر إليّ فرأى ما دخلني، فقال عليه السلام: «يَا أَبَانَ،

(١) الكافي، ج ٤، ص ٤١.

أَمَا تَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ ذَكَرَ الْمُؤْتِرِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ؟». قلت: بلى، جعلت فداك، فقال عليه السلام: «أَمَا إِذَا أَنْتَ قَاسَمْتَهُ فَلَمْ تُؤْتِرْهُ بَعْدُ إِنَّمَا أَنْتَ وَهُوَ سَوَاءٌ، إِنَّمَا تُؤْتِرُهُ إِذَا أَنْتَ أَعْطَيْتَهُ مِنَ النِّصْفِ الْآخِرِ»<sup>(١)</sup>.

(١) الكافي، ج ٢، ص ١٧١.

### ٣

## الأنصار مصداق رائع للإيثار

حفل تاريخ صدر الإسلام بمصايدق رائعة للإيثار، أحدها إيثار الأنصار للمجاهدين على أنفسهم، والآخر أولئك نفر من مجاريح المؤمنين في اليرموك، الذين حَمَلَ إليهم الماء فكان واحدهم يؤثر إخوانه على نفسه رغم الظمأ الذي يحسّ به المحتضر؛ حتى استشهدوا عن آخرهم عطاشى<sup>(١)</sup>، وقد روى أبو حمزة قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فشكا إليه الجوع، فبعث رسول الله ﷺ إلى أزواجه، فقلن: ما عندنا إلا الماء، فقال ﷺ: «مَنْ لِهَذَا الرَّجُلِ اللَّيْلَةَ؟».

فقال أمير المؤمنين عليه السلام: «أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ»، فأتى فاطمة عليها السلام وسألها: «مَا عِنْدَكَ يَا بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ؟» فقالت: «مَا عِنْدَنَا إِلَّا قُوْتُ الصَّيْبَةِ، لَكِنَّا نُوَثِّرُ ضَيْفَنَا بِهِ»، فقال عليه السلام: «يَا بِنْتَ مُحَمَّدٍ، نَوْمِي الصَّيْبَةَ وَأَطْفِي المِصْبَاحَ»<sup>(٢)</sup>.

(١) راجع تفسير ابن كثير، ج ٤، ص ٣٦٢.

(٢) وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٤٦٢.

هكذا ينبغي للمؤمنين وبالذات المجاهدين منهم أن يتساموا إلى هذا الخلق الرفيع في تعاملهم مع بعضهم، ولن يبلغوا ذلك حتّى يتجاوزوا أصعب عقبة تربويّة وعملية وحضاريّة، تغل الأفراد، والتجمّعات، والأمم عن النهوض والارتفاع في آفاق التقدّم والفضيلة؛ وهي النفس التي يعدها الإسلام - قرآناً وسنة - أعدى أعداء الإنسان، الذي إذا انتصر عليها صار إلى السعادة والفلاح، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(١)</sup>، فبالقدر الذي يسعى الإنسان إلى المزيد من العلم، ينبغي أن يسعى بأضعافه إلى تزكية نفسه وكمال أخلاقه.

إنّما اعتبر القرآن الوقاية من شحّ النفس هي الفلاح لأنّه رأس كلّ خطيئة وانحراف في حياة البشر، فهو أساس الكفر، والشرك، والظلم، والحسد و..، قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام: «البخل جامع لمساوي العيوب، وهو زمام يقاد به إلى كلّ سوء»<sup>(٢)</sup>. وهل أنزل الله رسالاته وبعث رسله إلّا ليخرج الإنسان من سجن شحّ النفس؟ وإنّ الشحيح لا يرى إلّا ذاته، كما لا يرى المسجون إلّا جدران زنزانه.

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

(٢) مستدرک الوسائل، ج ٧، ص ٧٩.

ولكن ما هو السبيل إلى التحرر من هذه التهلكة؟

إنّهُ التوكّل على الله والاستعاذة من شر النفس الأمّارة بالسوء، والانفتاح على هدى القرآن وبصائر السنّة، وتقبّل نصائح الواعظين، والتعبير القرآني بليغ للغاية إذ يقول: ﴿يُوقَى﴾ مبني للمجهول، أي أنّ الله هو الذي يحرّر الإنسان، وينقذه من ذلك.

ومشكلة الإنسان أنّه يحسب السعادة تتمثّل في اتباع الأهواء، وإشباع شحّ النفس، ولكنّه لا يعلم أنّ ذلك يجعله عبداً ضعيفاً لها؛ أليس محبّ الرّئاسة يتبع هوى المنصب أنّى اتّجه، ويلخص كلّ كيانه فيه، حتى عواطفه وعقله وصلاته الإنسانيّة يجعلها جميعاً وقفاً للمنصب؟!!

كذلك المولع بالثروة يرى الدُّنيا من خلالها، فلا يجد حرجاً من مسخ شخصيّته الإنسانيّة من أجل المال، فيولد إنساناً مُتكاملاً، ويموت وهو لا يملك من خصائص الإنسانيّة شيئاً. إنّ التحرر من حبّ الرّئاسة، وحبّ الثروة، والخروج من شحّ النفس، جعل المؤمنين أحراراً، مُنطلقين في رحاب الحياة، بلا قيود ولا أغلال.

وبما أنّ الإيثار قمّة الفضيلة فإنّ بلوغها بحاجة إلى عمليّة

تربويّة متواصلة، وذلك بالاستعاذة بالله سبحانه من الحرص، والبخل، وشحّ النفس. فقد جاء في الخبر المروي عن الإمام الباقر عليه السلام فيما رواه عنه أبو بصير قال: قلت لأبي جعفر عليه السلام كان رسول الله صلى الله عليه وآله يتعوّذ من البخل فقال: «نَعَمْ يَا أَبَا مُحَمَّدٍ، فِي كُلِّ صَبَاحٍ وَمَسَاءٍ، وَنَحْنُ نَتَعَوَّذُ بِاللَّهِ مِنَ الْبُخْلِ، اللَّهُ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأَوْلِيكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»<sup>(١)</sup>.

وفي الحديث: «لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، وَلَا يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ فِي جَوْفِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ»<sup>(٢)</sup>، وأيضاً: «لَا يَجْتَمِعُ الشُّحُّ وَالْإِيمَانُ فِي قَلْبِ عَبْدٍ أَبَدًا»<sup>(٣)</sup>.

وروى الفضل بن أبي قرّة السندي أنّه قال:

قال لي أبو عبدالله عليه السلام: «أَتَدْرِي مِنَ الشَّحِيحِ؟».

قلت: هو البخل، فقال عليه السلام: «الشُّحُّ أَشَدُّ مِنَ الْبُخْلِ، إِنَّ الْبَخِيلَ يَبْخُلُ بِمَا فِي يَدِهِ، وَالشَّحِيحُ يَشْحُ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَعَلَى مَا فِي يَدِهِ، حَتَّى لَا يَرَى فِي أَيْدِي النَّاسِ شَيْئًا إِلَّا تَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ بِالْحِلِّ وَالْحَرَامِ، وَلَا يَقْنَعُ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ»<sup>(٤)</sup>.

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله: «مَا مَحَقَّ الْإِسْلَامَ مَحَقَّ الشُّحِّ شَيْءٌ»،

(١) مستدرک الوسائل، ج ٧، ص ٣٠ - تفسير العياشي، ج ٢، ص ٢٤٤.

(٢) مجمع البيان، ج ٩، ص ٣٣١.

(٣) وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٤٠.

(٤) الكافي، ج ٤، ص ٤٥.

ثم قال: «إِنَّ لِهَذَا الشَّحِّ دَيْباً كَدَيْبِ التَّمْلِ، وَشُعْباً كَشُعْبِ الشَّرِكِ»<sup>(١)</sup>.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام: «إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ فِي عَبْدٍ حَاجَةٌ؛ ابْتِئَالَهُ بِالْبُخْلِ»<sup>(٢)</sup>.

وقال علي بن إبراهيم: حدثني أبي عن الفضل بن أبي قره قال: رأيتُ أبا عبد الله عليه السلام يطوف من أول الليل إلى الصباح وهو عليه السلام يقول: «اللَّهُمَّ قِنِي شَحَّ نَفْسِي»، فقلت: جعلت فداك، ما سمعتك تدعو بغير هذا فقال: «وَأَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنْ شَحِّ النَّفْسِ، إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يُوقِ شَحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»<sup>(٣)</sup>.

وفيما يلي مجموعة روايات تبين فضل العطاء ودم البخل والشح:

- عن سماعه قال: سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل ليس عنده إلا قوت يومه، أيعطف من عنده قوت يومه على من ليس عنده شيء؟ ويعطف من عنده قوت شهر على من دونه، و السنة على نحو ذلك، أم ذلك كله الكفاف الذي لا يلام عليه؟ فقال: «هُمَا

(١) الكافي، ج ٤، ص ٤٥.

(٢) الكافي، ج ٤، ص ٤٤.

(٣) مستدرک الوسائل، ج ٧، ص ٣٠ - تفسير القمي، ج ٢، ص ٣٧٢.

أَمْرَانِ أَفْضَلُكُمْ فِيهِ أَحْرَصُكُمْ<sup>(١)</sup> عَلَى الرَّغْبَةِ فِيهِ وَالْأَثَرَةَ عَلَى نَفْسِهِ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾، وَالْأَمْرُ الْآخِرُ لَا يَلَامُ عَلَى الْكَفَافِ، وَالْيَدُ الْأَعْلَى خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى، وَابْتَدَأَ بِمَنْ تَعُولُ<sup>(٢)</sup>.

• عن علي بن سويد السائي، عن أبي الحسن موسى عليه السلام، قال: قلت له: أوصني؟ فقال: «أَمْرُكَ بِتَقْوَى اللَّهِ». ثم سكت، فشكوت إليه قلة ذات يدي، وقلت: والله لقد عريت حتى بلغ من عريتي أن أبا فلان نزع ثوبين كانا عليه وكسانيهما، فقال: «صُمْ وَتَصَدَّقْ»، فقلت: أتصدق بما وصلني به إخواني؟<sup>(٣)</sup> قال: «تَصَدَّقْ بِمَا رَزَقَكَ اللَّهُ وَلَوْ آثَرْتَ عَلَى نَفْسِكَ»<sup>(٤)</sup>.

• عن أبي بصير، عن أحدهما عليهما السلام، قال: قلت له: أي الصدقة أفضل؟ قال: «جُهْدُ الْمُقِلِّ، أَمَا سَمِعْتَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ تَرَى هَا هُنَا فَضْلًا؟»<sup>(٥)</sup>.

(١) في المصدر: أفضلكم فيه أحرصكم.

(٢) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٣٤٠.

(٣) زاد في المصدر: وإن كان قليلاً.

(٤) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٣٤٠.

(٥) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٣٤١.

## ٤

### درس الإيثار والتضحية

قال الله تعالى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ وَالْعَادِيَاتِ  
 ضَبْحاً ① فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً ② فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً ③ فَأَثَرْنَ  
 بِهِ نَقْعاً ④ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً ⑤ إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ ⑥  
 وَإِنَّهُ عَلَىٰ ذَلِكِ لَشَهِيدٌ ⑦ وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ ⑧ أَفَلَا  
 يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ ⑨ وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ ⑩ إِنَّ  
 رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّخَبِيرٌ ⑪﴾.

لكي نفقه كرامة المجاهدين على الله عز وجل، وعظمة دور  
 خيلهم العاديات في سبيله التي يُقسم القرآن بها، لأنَّها من  
 وسائل حمل نور الإسلام إلى الآفاق، وهي تحمل صفوة عباد  
 الله الذين نذروا أنفسهم في سبيل نشر دعوته.

إنَّ الخيل العاديات قد تجاوزت الحد في السَّرعَة، اشتياقاً إلى  
 إلحاق الهزيمة بأعداء الله، وتحقيق الهدف الربَّاني.

(١) سورة العاديات، الآيات ١ - ١١.

بعد أن يصوّر السّياق ببلاغة نافذة معركة مُنتصرة، يمتطي المجاهدون فيها الخيول التي تعدو وتححم، ويقدح من حوافرها الشّرار، ثمّ تغير مع بواكير الصّباح على العدو، مشيرة غباراً كثيفاً، ثمّ تبلغ وسط الهدف.

بعد أن يصوّر السّياق ذلك ويقسم به إكراماً له (لأنّه غاية الجود والشّهامة والإيثار)؛ يبيّن أنّ الطّبيعة الأوّليّة للإنسان (قبل أن يتربّي ويتزكّى) هي النّكد، والبخل، وحبّ الخير لنفسه، والاستئثار به، ولكن متى يفقه حقاً خطأه؟ عندما تتكشّف القبور عما سترتها من أجساد، وتتكشف الصدور عما خبأتها من أسرار، يومئذٍ يعرف الإنسان أنّ ربّه خبير به.

هكذا تربّي هذه السورة الكريمة -التي جاء في بعض الأحاديث أنّها بمثابة نصف القرآن- الإنسان على الإيثار والتّضحية في سبيل الله.



الباب الثاني:

# البخل





الفصل الأول:

**من هم البخلاء؟**





## خلاصة الفصل الأول

أن تكون غنياً فإن ذلك لا يضير، ولكن أن تتعالى على الناس بالغنى؛ تلك كارثة، من هنا نستفيد من الكتاب الكريم كيف أن الأغنياء الذين يتعالون عن الناس لا يحبهم الله، قال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾<sup>(١)</sup>.

من هم هؤلاء؟ يقول ربنا سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾<sup>(٢)</sup>.

وهكذا تسقط هيبة الأغنياء في أنظار العامة؛ لكي لا يخضع الناس لهم، أو يغتروا بثروتهم، وقد ترى الأغنياء ينفقون ولكنهم أولاً يكتُمون عن الناس ثروتهم لكي لا يطمع

(١) سورة لقمان، الآية ١٨.

(٢) سورة النساء، الآية ٣٧.

الآخرون بها، وثانياً ينفقون في مقابل ما يحصلون عليه، من تسليم الناس لهم، والخضوع لهم، وهكذا ترى الأغنياء يقعون فيما هربوا منه، وهو: كراهية الناس لهم.

وهكذا تجد أن الذين يراؤون الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر؛ يكون الشيطان قريناً لهم ﴿فَسَاءَ قَرِيناً﴾، ونتساءل: لماذا لا ينفقون في سبيل الله؟ وماذا عليهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر، وأنفقوا مما رزقهم الله سبحانه؟ هل يخشون ظلم الله لهم؟

كلاً، إن الله لا يظلم أحداً مثقال ذرة، وإنما يجازيهم إن فعلوا خيراً بأحسن جزاء، وكما يقول ربنا: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيماً﴾<sup>(١)</sup>.

مشكلة أخرى عند الأغنياء هي أنهم قد يتعالون في الأرض وينافسون القيادة الشرعية، ويؤمل لهم حيناً يواجهون الحقائق، يقول تعالى: ﴿يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ الْأَرْضُ﴾<sup>(٢)</sup>.

ونتساءل من هو الشحيح، ومن هو البخيل؟

البخيل هو الذي يبخل فيما يده، والشحيح هو الذي

(١) سورة النساء، الآية ٤٠.

(٢) سورة النساء، الآية ٤٢.

يبخل بما في أيدي الناس، والبخيل هو الذي لم يؤدّ الزكاة المفروضة من ماله، ولم يعطِ الفقراء من قومه، وهو يبذر فيما سوى ذلك.



١

## البخل مرض الأغنياء

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ<sup>(١)</sup> وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَاباً مُهِيناً<sup>(٢٧)</sup>﴾ وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِيناً فَسَاءَ قَرِيناً<sup>(٢٨)</sup> ﴿٢٨﴾ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيماً<sup>(٢٩)</sup> إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ<sup>(٣٠)</sup> مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكَ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً<sup>(٣١)</sup>﴾ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً<sup>(٣٢)</sup>﴾ يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوْا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً<sup>(٣٣)</sup>﴾.

(١) البخل: أصله مشقة العطاء، أو أنه منع الواجب.

(٢) القرين: أصله الاقتران، والقرين: صاحب المالوف.

(٣) الظلم: هو الألم الذي لا نفع فيه، وأصله وضع الشيء في غير موضعه.

(٤) سورة النساء، الآيات ٣٧ - ٤٢.

كما الجبل الراسي الذي ينحدر منه السيل بقوة واندفاع، ولكن دون أن تتأثر صخوره الصلبة بأموج السيل أو بهديره، كذلك المؤمن ينحدر منه الإحسان إلى كل جوانب الحياة، ولكن دون أن يسبب الإحسان ضعفه أو استسلامه.

فلا يتعالى المؤمن على الفقراء، وفي ذات الوقت لا يسمح أن يتعالى عليه الأغنياء.

أمّا الأغنياء الذين يريدون أن يفرضوا عليه سلطانهم؛ فالمؤمن يثور عليهم ولا يخضع أبداً لملهم، ولا يخشى عقابهم. ولكن بما أن أغلب الأغنياء يفرضون سلطانهم على الضعفاء بشكلٍ أو آخر، فإن القرآن تحدّث عن سلبيات هذه الطبقة لإسقاطها في أنظار الناس، إلا إذا التزموا بشروط الطاعة لله، والرّسول، والقيادة الإسلامية، والإنفاق في سبيل الله بإخلاص تام، قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾<sup>(١)</sup>، وتسرد الآيات معالم المختال الفخور، حيث يقول ربّنا: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾.

المختال: هو المغرور بثروته أو آية مميزة أخرى له، والفخور هو المتظاهر بهذه الثروة والمتكبر بها على الناس، وهذه الصفة

(١) سورة لقمان، الآية ١٨.

التفسيّة ناشئة من الشّعور بالضعف والتّقص، ومحاولة جبران هذا الشّعور بالاختيال، والفخر، والتكبرّ.

إنّ الإنسان يختال بنعم الله عليه، ويتناول على الناس بها، والطبقة الغنيّة هي الأكثر تعرّضاً لخطر هذه الصّفة. أمّا الممارسات السلوكية التي تفرزها هذه الصّفة النفسية السيئة هي البخل؛ لأنّ المختال بماله يخشى أن ينفلت المال من يديه فيفقد شخصيّته، ولذلك يحرص على المال حرصه على حياته وشخصيّته وكرامته، ويعتبر المال القيمة الوحيدة في حياته.

ولكن البخيل المختال بماله سرعان ما يكشف أنّ الذين ينفقون أموالهم يكتسبون شهرة واسعة، وعلوّاً عند الناس، فيبدأ بنهي الناس عن الإنفاق حتى يصبحوا مثله، ويجعل رسالته في الحياة الصدّ عن سبيل الإنفاق.

وحين يشتد ضغط الناس عليه بضرورة الإنفاق؛ تراه يكتم عن الناس ثرواته، ويتظاهر بالفقر، وفي بعض الحالات يكتم المختال ثروته خوفاً عليها، وحفاظاً لها عن أعين المنافسين.

وبذلك يقع البخيل فيما هرب منه، أو ليس هرب من الفقر وما فيه من صفة اجتماعية وقيود مادية، فهذا هو عاد وجلب إلى ذاته كراهية الناس، كما قيّد نفسه عن الإنفاق، وكتّم نعم الله عليه ولم ينتفع بها، أو ليس هذا فقراً أشدّ المأ من عدم الفقراء،

ومسكنة الصعاليك، من هنا جاء في وصية أمير المؤمنين عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية: «**الْحِرْصُ فَقْرٌ حَاضِرٌ**»<sup>(١)</sup>.

وينهي القرآن الآية بقول الله سبحانه: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾<sup>(٣٧)</sup> للإيحاء بأنّ كتمان نعم الله، والبخل بها، والاختيال، والفخر، إنّما هي كُفْر بالله ومما آتاه الله للإنسان من نعم الحياة، وبالنسبة للمختال يُهيى له الله عذاباً مهيناً، جزاء تطاوله على الناس وتكبره عليهم.

### المرائي شيطان ناطق

بلى، طبقة الأغنياء قد تنفق المال ولكن لمن؟ ولماذا؟

إنّها تُنفق المال لأولئك المُتملّقين الذين يكيلون لهم الثناء الباطل بغير حساب، ويزيّنون للناس صورتهم القبيحة، وهم يقصدون من وراء ذلك امتصاص المزيد من جهد الناس وحقوقهم.

وهذه الطبقة المتملّقة يسمّيها القرآن هنا (شيطانا)؛ لأنّها تخدع صاحبها وتضلّه عن الصراط، وتزيّن له أعماله السيئة، يقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ رِشَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾<sup>(٣٨)</sup>.

(١) من لا يحضره الفقيه، ج ٤، ص ٣٨٩.

ولتساءل من هؤلاء؟ ولماذا يكفرون بالله ولا ينفقون أموالهم إلا رياءً؟ أو ليست هذه الأموال نعم الله عليهم، أو لا ينبغي لهم شكر الله على نعمه؛ بالإيمان به والإنفاق في سبيله؟ وما الذي يخشى منه هؤلاء من الإيمان والإنفاق؟ هل يخشون أن يسلب الله نعمه عنهم لو أنفقوها في سبيله؟ أم يخشون أن لا يجازيهم عليها؟ قال تعالى: ﴿وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا﴾ ﴿٣١﴾؟

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ فهو يجازي الناس بالضبط، وإذا كفر شخص بقدر وزن ذرة صغيرة، فإنه يجازيه بقدر كفره.

أمّا إذا أحسن هذا القدر فهو ليس يجازيه فحسب، بل ويزيد له من رحمته، قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ ﴿٤١﴾ يُضَاعِفْهَا في الدنيا، ويجزي عليها بثواب عظيم في الآخرة.

### من هو القائد؟

طبقة الأغنياء تتعالى على الناس بالباطل، وتتعالى على القيادة الشرعية، وتحاول التمرد عليها خصوصاً في إعطاء حقوقها من الضرائب الشرعية.

من هنا جاء ذكر الرسول ﷺ باعتباره القيادة الشرعية،  
 وبين الله أن الرسول ﷺ هو القائد الحقيقي للناس، فإذا لم  
 يطعه شخص في الدنيا؛ فإنه في الآخرة شهيد عليه، وهنالك  
 يتمنى هذا الشخص أنه كان تحت التراب ولم يعص الله، ويكتم  
 نعم الله عليه، ويقول كذباً أن ليس لله عليه حقوق كما تفعل  
 طبقة الأغنياء، يقول تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ  
 بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً﴾<sup>(١)</sup>.

يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ  
 لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾<sup>(٢)</sup> تُسَوَّى  
 بهم الأرض، تعبير رائع للدلالة على أنهم يودّون لو كانوا  
 تحت التراب، بحيث لا يبقى لهم أثر ظاهر عليه.

• عن الفضل بن أبي قررة، قال: قال أبو عبد الله ﷺ:  
 «تَدْرِي مَا الشَّحِيحُ؟» قلت: هو البخيل. قال: «الشُّحُّ  
 أَشَدُّ مِنَ الْبُخْلِ إِنَّ الْبُخِيلَ يَبْخُلُ بِمَا فِي يَدِهِ، وَالشَّحِيحُ  
 يَشْحُ عَلَى مَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَعَلَى مَا فِي يَدَيْهِ، حَتَّى  
 لَا يَرَى مِمَّا فِي أَيْدِي النَّاسِ شَيْئاً إِلَّا تَمَنَّى أَنْ يَكُونَ لَهُ  
 بِالْحِلِّ وَالْحَرَامِ، وَلَا يَقْنَعُ بِمَا رَزَقَهُ اللَّهُ»<sup>(٣)</sup>.

• عن أبي جعفر ﷺ، قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لَيْسَ

(١) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٤٠١.

الْبَخِيلُ مَنْ أَدَّى الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ مِنْ مَالِهِ وَأَعْطَى الْبَائِنَةَ فِي قَوْمِهِ؛ إِنَّمَا الْبَخِيلُ حَقَّ الْبَخِيلِ مَنْ لَمْ يُؤَدِّ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ مِنْ مَالِهِ، وَلَمْ يُعْطِ الْبَائِنَةَ فِي قَوْمِهِ وَهُوَ يُبْذِرُ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ»<sup>(١)</sup>.

• عن أبي الحسن موسى عليه السلام، قال: «الْبَخِيلُ مَنْ بَخَلَ بِمَا افْتَرَضَ اللَّهُ عَلَيْهِ»<sup>(٢)</sup>.

• عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «إِنَّ الْبَخِيلَ مَنْ كَسَبَ مَالًا مِنْ غَيْرِ حِلِّهِ، وَأَنْفَقَهُ فِي غَيْرِ حَقِّهِ»<sup>(٣)</sup>.

(١) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٤٠١.

(٢) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٤٠١.

(٣) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٤٠٢.

## ٢

## بخل الطبقة الغنية

## وضرورة تحسين المجتمع من أمراضهم

قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتَلَهُمُ الْأَنْبِيَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾ ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَمِيدِ ﴿١٨٢﴾ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عِهْدَ إِلَيْنَا إِلَّا نُوَمِّنَ لِرُسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٨٣﴾ فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ<sup>(١)</sup> وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْرِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ لَتَبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعَنَّ

(١) الزبير: جمع زبور، وكلّ كتاب فيه حكمة فهو زبور.

مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١١﴾.

في الآيات الختامية لسورة آل عمران التي تعطي رؤية شاملة عن أهل الكتاب، وبمناسبة الحديث عن المتقاعسين عن الجهاد بأموالهم تحدثنا هذه الآيات عن بعض صفات اليهود، الذين عبدوا العجل وكانوا أكثر خلق الله بخلاً.

إنهم كانوا يتهامون بأن الله فقير؛ لذلك نجد المؤمنين به هم الفقراء، أما نحن فأغنياء، ويهددهم القرآن ويقول: إن كلامهم هذا مسجّل عليهم كما سجلنا سائر أعمالهم السيئة كقتل الأنبياء ﷺ.

إن قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ ما هو إلا تبرير لكفرهم وبخلهم، وذلك مثل تبريرهم عدم إيمانهم بالرسول ﷺ بأنه يفقد آية الرسالة التي كانت في زعمهم قرباناً تأكله النار، والدليل على ذلك أنهم قتلوا الأنبياء الذين جاؤوا بهذه الآية ذاتها.

إن تكذيب اليهود للرسول ليس جديداً عليهم، بل إنهم كذبوا الأنبياء من قبله، بسبب تشبّثهم بالماديات، تلك الزخارف التي لا بد أن يرحل عنها الإنسان في يوم، فكلّ بشر

(١) سورة آل عمران، الآيات ١٨١ - ١٨٦.

محكوم عليه بالموت، وإثما الفائزون هم الذين يكتسبون الجنة بعد الموت.

ثم يبيّن القرآن الحكيم: أنّ مواجهة اليهود - وكذلك طبقة الأغنياء البخلاء - تتطلّب جهوداً مضنية، حيث لا بدّ أن يسمع المسلمون ﴿مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا﴾، ومن ذلك الأذى أتهم يكذبون بالرّسالة، بالرّغم من ميثاق الله والرّسول عليهم في الكتاب، بأن يؤيّدوها ويصدّقوا بها.

إنّ طبقة الأحرار تتحد مع طبقة الأغنياء البخلاء في محاربة الرّسالة الجديدة، وأنّ الأغنياء ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾. والله غني عن أموالهم؛ لأنّ له ما في السّموات والأرض.

قد تكون الطبقة الغنيّة متحالفة مع أولياء الرّسالة، فتكون مجاهدة بما لها في سبيل انتصارها، ومُتعاونة مع الضّعفاء من النّاس، وقد تكون متحالفة مع أعداء الرّسالة، وهذه هي السّنة الغالبة.

وعن هذه الطبقة يتحدّث القرآن في هذه الآيات من سورة آل عمران، ولكن على الرّغم من تجسّدها في أشخاص اليهود، لا يذكر القرآن اسم اليهود لكيلا يقتصر عليهم الحديث، بل

يبقى شاملاً لكل الأغنياء الذين يعادون الرّسالة.

إنّ هؤلاء يزعمون أنّ مقياس الحقّ والباطل هو الثروة، ويتهمّون على المؤمنين، ويقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾، ولذلك يقبل الفقراء.

وهم يعادون الرّسالة إلى درجة حمل السّلاح في وجه الأنبياء ﷺ، واقرار جريمة القتل بحقّهم، وكلّ هذه الأعمال دليل على أنّ الثروة ليست مقياس التقرب إلى الله، بل أعدّ الله لهؤلاء عذاباً يحرقهم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾﴾.

عذاب الحريق الذي يصيب هؤلاء الأغنياء البخلاء ليس لأنهم أغنياء بل لأنهم بخلوا بحقوق الله، يقول ربّنا سبحانه: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ﴿١٨١﴾﴾.

ومن أكاذيب هؤلاء التي يبرّون بها كفرهم بالإسلام، وموقفهم العدائي من الرّسالة الجديدة، أنّهم يقولون: إنّ العلامة الضروريّة لصدق الرّسالة غير موجودة في هذه الرّسالة، وهي: نزول قرآن تأكله النّار، ولكن الله يفنّد هذا القول، ويبيّن أنّ تكذيب الرّسول ليس جديداً عليهم، بل هو

ناشئ عن موقفهم العام من الرّسل. ولذلك حين جاءهم رُسل مزوّدون بتلك العلامة، كذبوا بهم، وفوق ذلك قتلوهم، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عٰهَدَ إِلَيْنَا آٰلَا نُؤْمِنُ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ﴾ حيث كانت من العادة أن تنزل النار من السّماء، فتأكل ما يُتقرَّب به إلى الله من الذّبائح، للدّلالة على تقبّل الله لهذا القربان، وبالتالي للدّلالة على سلامة نيّة الرّسول.

قال تعالى: ﴿قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ﴾ حيث لم تكن العلامة الفارقة بين الرّسل وغيرهم، مجرد قُربان، بل بينات كثيرة أخرى جاءت بها الرّسل، قال تعالى: ﴿وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ ﴿١٧٢﴾ إنّما أنتم تبرّرون كُفركم عبر هذه الأكاذيب، وهكذا طبقة الأغنياء المترفين يبرّرون، كُفركم بالرّسالات، وبالحرّكات الرّساليّة، بأكاذيب باطلة حيث يلصقون بها أشع التُّهم.

والتّكذيب بالرّسالة الجديدة، إنّما هو ناشئ من موقف هؤلاء المبدئي، من كلّ رسالة وكلّ رسول، يقول سبحانه: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ ﴿١٧٤﴾ إذن لا داعي للخوف من هذه الطبقة، إذ إنّ رسالات السّماء كلّها انتصرت بالرّغم من

تكذيب هؤلاء لها، كما لا ينبغي أن يتزلزل الناس من تكذيب هؤلاء، ويشكّون في صدق الرسالة، كلا لأنهم مصلحيّون يتبعون أهواءهم، وليس أي شيء آخر.

والبيّنات: هي تلك المعاجز الظاهرة كعصا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ وإحياء عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ للموتى.

والزّبر: هو الكُتب المُنزلة.

وربّما يكون الكتاب المنير: هو الآيات المُحكّمة من الزّبر، وهي تلك التي تنير درب الضالّين، وهو يساوي في المعنى كلمة الفرقان.

وعلينا ألا نرُكع لهذه الطّبقة، ولا نتأثّر بما لديها من زينة الحياة الدّنيا، إذ إنّها ستزول، أو يزول عنها أصحابها.

وإنّ العظمة الحقيقيّة ليست لمن يملك بضعة دنانير أكثر، إنّما لمن يستطيع أن يخلّص نفسه من نار جهنّم، ويدخل الجنّة، فرّبنا يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾، إنّ الحياة الدّنيا سلعة تغر الإنسان، أو إنّها رأس مال المغتريّن، أمّا الواعي فإنّه يعرف أنّها حياة زائلة، فلا يغترّ بها، ولا يتخذها لنفسه متاعاً، ولا رأس مال، ولا رصيداً يعتمد عليه.

وعلى الأمة أن تتسلح بالصبر في مقاومة الطبقة الغنيّة، وتعرف أنّ مقاومتها ليس بالأمر الهين؛ بل تحتاج إلى التّضحية بالمال، والنّفس، وتحمل الإشاعات الكاذبة، حتّى تستطيع الرّسالة الانتصار عليها، وعلى أمثالها من الكفّار والمشرّكين. وسلاح الصّبر النّافذ يصنعه الإيثار الصادق بأنّ الحياة الدّنيا زائلة، وأنّ الدّار الآخرة هي الحياة.

قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾ أي إنّ الله يمتحنكم ويمتحنكم بإصابتكم في الأموال، والأنفس ﴿وَلَتَسْمَعَنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٦٣﴾﴾، وعلى الأمة ألا تقتصر على الصبر فحسب، بل وتتسلح -أيضاً- بالتّقوى، وهي الالتزام بواجبات، ومحرمات الدين بالضبط، وإذا فعلت ذلك فإنّها استطاعت أن تمتلك أزمة الأمور بيدها، لأنّ عزم الأمور ولبابها يتمثّل في الصّبر والتّقوى، في الصّمود والالتزام.

وفيما يلي بعض النّصوص الدالّة على خطورة داء البخل، وضرورة التحرّز منه ومن المبتلين به:

- عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِبَنِي سَلَمَةَ: يَا بَنِي سَلَمَةَ مَنْ سَيِّدُكُمْ؟ قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ،

سَيِّدُنَا رَجُلٌ فِيهِ بُخْلٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَأَيُّ دَاءٍ أَدْوَى مِنَ الْبُخْلِ؟ ثُمَّ قَالَ: بَلْ سَيِّدُكُمْ الْأَبْيَضُ الْجَسَدِ الْبُرَاءُ بْنُ مَعْرُورٍ»<sup>(١)</sup>.

• علي بن إبراهيم قال: «وَاللَّهِ مَا رَأَوُا اللَّهَ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ فَقِيرٌ، وَلَكِنَّهُمْ رَأَوُا أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَقَرَاءَ، فَقَالُوا: لَوْ كَانَ اللَّهُ غَنِيًّا لَأَعْنَى أَوْلِيَاءَهُ، فَافْتَحَرُوا فِي اللَّهِ بِالْغِنَى»<sup>(٢)</sup>.

• عن محمد بن سنان: أن علي بن موسى عليه السلام كتب إليه في جواب مسأله في قوله: ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾: «فِي أَمْوَالِكُمْ بِإِخْرَاجِ الزَّكَاةِ، وَفِي أَنْفُسِكُمْ بِتَوَطُّبِنِ الْأَنْفُسِ عَلَى الصَّبْرِ»<sup>(٣)</sup>.

(١) الكافي، ج٤، ص٤٥.

(٢) البرهان في تفسير القرآن، ج١، ص٧١٧.

(٣) البرهان في تفسير القرآن، ج١، ص٧٢٢.





الفصل الثاني:  
**أسباب البخل**





## خلاصة الفصل الثاني

كما أنّ للبخيل من الأغنياء صفات سيّئة ليس بما يرتبط بأموالهم فقط؛ بل تتسرّب إلى نفوسهم صفات أخرى تتصل بعقائدهم، فترى بعضهم يتهامس مثلاً ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾، وترى بعضهم يكذب - كما اليهود - بالرسالة، ويتنظر موت الرسول، وفي مواجهة هذه التساؤلات علينا أن نبذل جهوداً كبيرة، ونعرف أننا سوف نسمع من هؤلاء، ﴿وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَدَى كَثِيرًا﴾.

وقد تتحدّ طبقة المترفين مع طبقة الأحرار، حيث يحاولون شراء الذمّ منهم، ولكن لنعرف أنّ الغني هو الذي نفسه غنية، ولا تؤثر ثروته على عقيدته، وهكذا تراه يتحالف مع أولياء الرسالة، ويجاهد في سبيل الله بماله ونفسه، ومن هنا نعرف أنّ مقياس النفس ليس الثروة وإنّما الرسالة، ولذلك

نرى أنّ المترفين من اليهود كانوا حين يقولون: ﴿إِنَّ اللَّهَ فَاقِرٌ﴾ يقتلون الأنبياء، قال الله سبحانه: ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ عَهْدٌ إِلَيْنَا أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِينَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِ بِالْبَيِّنَاتِ وَإِلَىٰ قُلُوبِكُمْ فَلَمَّ قَتَلْتُمُوهُمْ إِنَّ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾<sup>(١)</sup>.

والحقيقة أنّ المترفين لا يستطيعون الفرار من الموت، ولا من عذاب الآخرة، وأمّا ما يملكون من ثروة فإنّها لا تغني شيئاً؛ بل أهم هدف يجب أن يجعله الإنسان نصب عينيه: الزحزحة عن النار، ثمّ دخول الجنّة، ثمّ إنّ ربّنا سبحانه وتعالى حين يبيّن حقائق المعركة الدائرة بين المترفين وبين الفقراء، فإنّما لنعرف المؤمنين أنّهم سوف يفتنون في أنفسهم، وفي أطفالهم، ويسمعون أذىً كثيراً، وعليهم أن يتلّحوا بالصّبر والتّقوى.

(١) سورة آل عمران، الآية ١٨٣.

## ١

### البخل نتيجة النظرة الماديّة للإنفاق

يضرب القرآن مثلاً على إعراض الكفار عن آيات التقوى، والمعاذير التي يلقونها أمام من يأمرهم بها، فحين يؤمرون بالإنفاق على الفقراء، تراهم يزعمون أن الله سبحانه وتعالى قد خلق بعض الناس أغنياء وبعضهم فقراء، بعضهم سادة والبعض عبيداً، فلا ينبغي السعي لردم الفجوة بين الطبقات، أو لتحقيق المساواة بين الناس.

هكذا يبررون استئثارهم بالخيرات في كل عصر، فالمستكبرون يزعمون أن تخلف البلاد المستضعفة شأن مفروض عليهم من الله، أمّا تقدمهم الاقتصادي فإنّه من أنفسهم، والطبقات المترفة تزعم أن غناهم آت من سعيهم، أمّا فقر الآخرين فهو من ربّهم.

يقول ربّنا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ﴾<sup>(١)</sup>،

(١) سورة يس، الآية ٤٧.

وسواءً كان القائل هو الله، أو المؤمنون الناطقون عن ربهم، فإن إجابتهم واحدة وهي الرفض، ولكن ألا يعلمون أنّ ما بأيديهم من الغنى هو - في الواقع - رزق الله، ولو شاء الله لمنعهم منه؟ أو لا ينظرون إلى أنّ توزيع المعادن على أقطار الأرض تمّ بأمر الله، وأنّ خصوبة الأرض كانت بأمر الله، وحتى توفر المناخ المناسب لنمو الصناعة كان بإذن الله؟

ولو تدبّر كلّ غني في الأسباب الخفية لنمو ثروته لرأى يد الغيب وراءها، فأولى بالأغنياء الإنفاق ممّا رزقهم الله، مادام الله يأمر به، وهو الذي استخلفهم في ما رزقهم ليبتليهم به.

ألا يرون أنّ كلّ شيء في عالم الإنسان يوحى بأنّه جاء لهذه الدنيا لكي يمتحن؟ فقد جعل الله امتحان الفقير بالغني ليرى هل يصبر، وامتحان الغني بالفقير؛ ليعلم من ينفق، ومن يبخل، وافتتن العالم بالجاهل وأمره بأن يعلمه كما ابتلى الجاهل بالعالم وأمره بأن يتعلّم منه، وجعل الحكام فتنة للناس وافتتن الناس بحكامهم، وقال عزّ من قائل: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾<sup>(١)</sup>.

ولكن الكفار زعموا أنّ غناهم وعدم الفقراء أمر حتمي من عند الله، قال تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهكذا

(١) سورة الفرقان، الآية ٢٠.

خاطب الكفار الذين آمنوا لأئهم الذين أمرهم بالإنفاق، ولأئهم المؤمنون بالله، فكان الأخرى بهم - حسب زعمهم - أن يؤمنوا بالقدر، فقالوا: ﴿أَنْطَعِمُ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾، ولم يقولوا أنفق؛ لأئهم منعوا عن الفقراء حتى الطعام الذي هو حق كل حي، فكيف بالإنسان الكريم عند ربّه.

انظر إلى مدى إمعانهم في البخل، والإعراض عن التقوى. بلى، إن الله يطعم من يشاء من رزقه الواسع، ولكنه قد جعل رزق هؤلاء الفقراء على أيديكم، لينظر كيف تعملون، وهو القائل - حسب الحديث القدسي - : «الْمَالُ مَالِي وَالْفُقَرَاءُ عِيَالِي وَالْأَغْنِيَاءُ وَكَلَائِي، فَمَنْ بَخَلَ بِمَالِي عَلَى عِيَالِي أُدْخِلَهُ النَّارَ وَلَا أُبَالِي»<sup>(١)</sup>.

ثم إن ربنا سبحانه أكرم بني آدم فجعلهم أحراراً في الدنيا، ووفر في الأرض ما يزيد على رزقهم، إلا إن كسل البعض عن السعي بأفكار جاهليّة، واستثثار البعض برزق الآخرين تحت مظلة من القوانين الجائرة، هما السببان الرئيسيّان لانتشار الفقر.

ومن أساليب محاربة الفقر: نبذ الثقافة الجاهليّة، وإصلاح الأنظمة الجائرة. والإنفاق واحد من أهمّ السبل لمحاربة

(١) جامع الأخبار، ص ٨٠.

الفقر؛ لأنّه علاج فوري، ووسيلة مُستقبليّة أيضاً لتوزيع الثروة، وتدويرها، وتحريك الطّاقات بها.

ولكن الكفّار جمدوا الثروة، وزعموا أنّها حقّهم الإلهي، بل قالوا لمن أمرهم بالإِنفاق كما ذكر الباري عزّوجلّ: ﴿إِن أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾<sup>(١)</sup>، لأنّكم تريدون تغيير سنن الله، وجعل الفقراء أغنياء، وهم قد خلقوا فقراء.

وترك السّياق لقارئ القرآن الحكيم الحُكَمَ على هذه العقلية، ولا ريب أنّه يحكم عليها بالضلال المُبين.

ولذلك احتار المُفسّرون في معرفة قائل هذه الكلمة، فمنهم من قال: إنّهم الكفّار، ومنهم من قال: بل هم المؤمنون قالوها للكفّار، وقال بعضهم: بل الله قالها للكفّار.

والظّاهر أنّها كلمة الكفّار للمؤمنين، ولكنّها ترد عليهم بطبعها، فبمجرّد أن يقول المجنون للذي يأمره بالحكمة: إنّك مجنون، نعرف أنّ المتكلّم بنفسه مجنون. أليس كذلك؟ هكذا نعرف ضلالة الكفّار بمجرّد أنّهم يقولون لمن يأمرهم بالإِنفاق: إنّك في ضلال مُبين، كلاً.. إنّهم هم في ضلال مُبين! وفي كلمات أهل البيت عليهم السلام إشارة إلى ضلالة حاملي

(١) سورة يس، الآية ٤٧.

هذا الفكر فقد روي عن الحارث الأعور، قال: فيما سأل عليّ عليه السلام ابنه الحسن عليه السلام أن قال له: «مَا الشُّحُّ؟ فَقَالَ: أَنْ تَرَى مَا فِي يَدِكَ شَرْفًا، وَمَا أَنْفَقْتَ تَلَفًا»<sup>(١)</sup>.

(١) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٤٠٢.

## ٢

## شَحَّ النَّفْسِ يَمْنَعُ الْإِنْفَاقَ

يَعَدُّ شَحَّ النَّفْسِ مَانِعاً كَبِيراً أَمَامَ الْإِنْفَاقِ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى:  
﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾<sup>(١)</sup>.

إِنَّ شَحَّ النَّفْسِ هُوَ مَجْمُوعُ الصِّفَاتِ السَّلْبِيَّةِ الَّتِي تَعْبَّرُ عَنْ حُبِّ الدَّاتِ وَحُبِّ الدُّنْيَا، كَالْبَخْلِ، وَالْحِرْصِ، وَالْعَنْصَرِيَّةِ وَمَا أَشْبَهَ، وَإِذَا انْتَصَرَ الْإِنْسَانُ عَلَى شَحِّ نَفْسِهِ صَارَ مِنَ الْمَصْلُوحِينَ؛ لِأَنَّهُ جَذَرَ كُلِّ ضَلَالٍ، وَانْحِرَافٍ، وَمَعْصِيَةٍ فِي حَيَاةِ الْبَشَرِ، وَلِأَنَّ الْإِنْتِصَارَ عَلَيْهِ يَفْتَحُ الطَّرِيقَ لَهُ نَحْوَ كُلِّ فَضِيلَةٍ وَصَلَاحٍ.

وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ أَبِي قُرَّةٍ فَيَقُولُ: رَأَيْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ الْإِمَامَ الصَّادِقَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَطُوفُ مِنْ أَوَّلِ اللَّيْلِ إِلَى الصُّبْحِ وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ قِنِّي شَحَّ نَفْسِي»، فَقُلْتُ: جَعَلْتُ فِدَاكَ، مَا سَمِعْتُكَ تَدْعُو بِغَيْرِ هَذَا.

(١) سورة الحشر، الآية ٩.

فقال عليه السلام: «وَأَيُّ شَيْءٍ أَشَدُّ مِنْ شُحِّ النَّفْسِ؟ إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: ﴿وَمَنْ يُوقْ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾»<sup>(١)</sup>.

والإنفاق من أهمِّ العوامل التي تقضي على شحِّ النفس، جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام: «مَنْ أَدَّى الرِّكَاءَةَ فَقَدْ وَقِيَ شُحَّ نَفْسِهِ»<sup>(٢)</sup>.

والتعبير بالمبني للمجهول ﴿يُوقِ﴾ إشارة لحاجة الإنسان الكبيرة إلى التوفيق الإلهي في التغلب على هذه الرذيلة.

(١) مستدرک الوسائل، ج ٧، ص ٣٠ - تفسير القمي، ج ٢ ص ٣٧٢.

(٢) مجمع البيان، ج ١٠، ص ٣٨٣.

## ٣

## الاغترار بالنعم

يضرب الله مثلاً على المُختالين الذين يفخرون، ويبين لنا انعكاس فرحهم بالنعم على نفوسهم وسلوكهم بالنسبة للإنفاق، بعد بيان انعكاسه في النفس والمجتمع، يقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَبْخُلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾<sup>(١)</sup>، وإنما يبخلون لأسباب أهمها أمران:

• **الأول:** لأنهم يريدون التّفاخر والتّكاثر، فهم يزعمون أنّ الإنفاق يقلل ما يملكون، وجاء في الحديث: «مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَى عَبْدٍ بَاباً مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا فَتَحَ عَلَيْهِ مِنَ الحِرْصِ مِثْلَيْهِ»<sup>(٢)</sup>.

• **الثاني:** لأنهم يشعرون بالاستغناء عن كلّ أحد، وهذا يتضخّم في نفوسهم حتّى يشعرون بعدم الحاجة إلى ثواب الله، فإذا بهم لا يستجيبون لدعوته بالإنفاق،

(١) سورة النساء، الآية ٣٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ٢٥٤.

ولا يدعمون مسيرة الحقّ، يقول عزّ وجلّ: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾<sup>(١)</sup> الذي لا يحتاج إلى أحد، وإنّما أمر بالإنفاق لصالح النّاس ولا بتلائهم ﴿الْحَمِيدُ﴾ فهو يواصل فضله على عباده.

### ولكن لماذا يأمرّون النّاس بالبخل؟

١. لكي يبرّروا بخلهم بخلق تيار من البُخلاء في المجتمع حتى لا يُرى بخلهم شذوذاً.
٢. حفاظاً على الحالة الطبقيّة التي تُهدّهم الاستبداد، والاستغلال، والفخر، والخيلاء، أمّا إذا ردمت الهوّة بين الطبقتين: الأغنياء والفقراء، فعلى من يختالون ويفتخرون، ومن يستغلون ويستبدّون؟! والرّأسمالية الموجودة الآن هي أحد إفرازات الفلسفات والأفكار الإغريقيّة القديمة العفنة، والتي تُقسّم النّاس إلى طبقات حتميّة، وذاتها موجودة الآن في الفلسفات البرهمنيّة في الهند.
٣. كما أنّ المنافقين يتّخذون تثبيط النّاس عن الإنفاق، ودعوتهم إلى البخل سبيلاً للصد عن سبيل الله،

(١) سورة الحديد، الآية ٢٤.

ومحاربة الرّسول ورسالته الداعيين إلى العدالة،  
والوقوف ضدّ الطبقية المقيتة، واستغلال الناس و...  
مما يتعارض مع مصالحهم.

قال تعالى: ﴿هُم الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مَنْ عِنْدَ  
رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ  
وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾<sup>(١)</sup>، وهذه الآية تُشير إلى  
الهدف الأخير للأمر بالبخل، ولعلّ الآية من سورة الحديد  
إشارة إلى دور المنافقين في محاربة الرّسالة، والدعوة إلى التويّي  
عن الرّسول والحقّ.

وفي الأخبار روايات كثيرة في ذمّ البخل والبخلاء إليك  
بعضها:

- قال رسول الله ﷺ: «البخيلُ بعيدٌ من الله تعالى، بعيدٌ  
من الناس، بعيدٌ من الجنّة، قريبٌ من النار»<sup>(٢)</sup>.
- قال الإمام عليّ عليه السلام: «البخلُ جامعٌ لمساوي العيوبِ،  
وهو زمامٌ يُقادُ به إلى كلّ سوء»<sup>(٣)</sup>.
- قال الإمام الصادق عليه السلام: «حسبُ البخيلِ من بخلِهِ

(١) سورة المنافقون، الآية ٧.

(٢) مستدرک الوسائل، ج ٧، ص ١٣.

(٣) مستدرک الوسائل، ج ٧، ص ٢٩.

- سوء الظنِّ بِرَبِّهِ، مَنْ أَيْقَنَ بِالْخَلْفِ جَادَ بِالْعَطِيَّةِ»<sup>(١)</sup>.
- قال الإمام عليّ عليه السلام: «النُّظْرُ إِلَى الْبَخِيلِ يُقَسِّي الْقَلْبَ»<sup>(٢)</sup>.
  - عن الإمام الرضا عليه السلام: «وإِيَّاكُمْ وَالْبُخْلَ فَإِنَّهَا عَاهَةٌ لَا تَكُونُ فِي حُرٍّ وَلَا مُؤْمِنٍ، إِنَّهَا حَلَاقَةٌ الْإِيمَانِ»<sup>(٣)</sup>.

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١٤٧.

(٢) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٥٣.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ٣٤٦.





الفصل الثالث:

## آثار البخل





## خلاصة الفصل الثالث

لماذا يبخل البخيل؟

لعلّ من أسباب البُخل عندهم خشية الفقر، وأثمّ يزعمون أنّ غناهم فضل من الله يدل على أثمّ مقربون إلى ربّهم، وأنّ الله لو كان يحب الفقراء؛ لما جعلهم كذلك، كلاً إنّ الغنى من الله، ولكن لا يعني ذلك أنّ الغني يستأثر بالمال ويمنعه من الفقراء، وإنّما يجب أن نجعل تفاوت الناس بين غني وفقير، في إطار الفتنة، حيث قال ربّنا: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾<sup>(١)</sup> فالغني فتنة الفقراء، وهم بدورهم فتنة للأغنياء.

فلا يجوز أن يمتنع الأغنياء عن الإنفاق على الفقراء، بهذا التبرير ويزعم أنّه لو شاء الله سبحانه لأغناهم، قال تعالى:

﴿أَنْظِعُمْ مَنْ لَوْ يَشَاءُ اللَّهُ أَطْعَمَهُ﴾.

(١) سورة الفرقان، الآية ٢٠.

ويختصر حديث شريف حقيقة الشحّ، وكيف ينبغي أن يتجنّبهُ الإنسان، فقال: «أَنْ تَرَى مَا فِي يَدِكَ شَرْفًا وَمَا أَنْفَقْتَ تَلْفًا»<sup>(١)</sup>.

والشحّ في الحقيقة شحّ النَّفس، وشحّ النَّفس فتنة في الإنسان، وعلى الإنسان أن يتخلّص منه بالتوجّه إلى الله، فالله سبحانه وتعالى هو الذي يقي الإنسان شحّ نفسه إذا أراد، قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

والزّكاة في الحقيقة هي دواء ذلك الشحّ، وقد نرى أنّ البعض يغرّ بالنعم إلى درجة يأمر الناس بالبخل، قال تعالى: ﴿وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ﴾ وجاء في الحديث الشّريف: «مَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيَّ عَبْدٍ بَابًا مِنْ أَمْرِ الدُّنْيَا؛ إِلَّا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ مِنَ الْحِرْصِ مِثْلَيْهِ».

ولعلّ هؤلاء البُخلاء يبرّرون بخلهم بسبب تأييد فئة من أبناء المجتمع، حتّى يشكّلوا مجموعة من المتعالمين على الناس، علماً بأنّ نهى الآخرين عن الإنفاق يُعتبر صدّاً عن سبيل الله ومحاربة للرّسول، فإنّهم كما جاء في الآية الكريمة: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا﴾<sup>(٢)</sup>.

وهكذا روي عن رسول الله ﷺ قوله: «السَّخِيُّ قَرِيبٌ مِنَ اللَّهِ، قَرِيبٌ مِنَ النَّاسِ، قَرِيبٌ مِنَ الْجَنَّةِ، بَعِيدٌ مِنَ النَّارِ»<sup>(٣)</sup>.

(١) بحار الأنوار، ج ٧٥، ص ١١٤.

(٢) سورة الفرقان، الآية ٧.

(٣) إرشاد القلوب، ج ١، ص ١٣٦.

١

## النفاق عقبى البخل

تتجلى حالة النفاق عندما ترى بعض الفقراء يتمنون الغنى، ويزعمون أنهم سوف يوفون بعهدهم مع الله عز وجل، ويتصدقون بفضل أموالهم، ويعملون بها صالحاً، بيد أنهم بعد الغنى يعملون العكس تماماً، لماذا؟

لأن تظاهرهم بالإيمان والهدى إنما كان حين لم يتعرضوا للتجربة، أما الآن فإن حب المال، وشح النفس، وقضية العودة إلى حالة الفقر تضغط عليهم باتجاه البخل، وتغريهم بالفساد، قال تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾<sup>(١)</sup>، إن فضل الله ينبغي أن يدفع الفرد باتجاه الصدقة والصلاح؛ لأن الذي أعطى يقدر على أن يسلب العطاء، ويعيد حالة الفقر.

بيد أن ذوي النفوس الضعيفة والإرادات المهترئة تراهم يغترون بنعمة الله وفضله.

(١) سورة التوبة، الآية ٧٥.

وقد يكون المنافق واحداً منا دون أن نشعر، لأنه قد يستطيع الواحد أن يُقاوم ضغط الفقر، ولكنه ينهار أمام إغراء المال، أو حتى يقاوم هذا الإغراء، ولكنه ينهار أمام إغراء السُّلطة والجاه، وهكذا على الإنسان أن يتزوّد بالإيمان، ويتسلّح بالإرادة الصّلبة، والتوكّل على الله، حتى لا يصبح مثل الذين يقول عنهم القرآن في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ جَحَلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾<sup>(١)</sup>، أي أنّهم بالإضافة إلى عدم وفائهم بالعهد السابق الذي ألزموا أنفسهم به من الصدقة، بالإضافة إلى ذلك تجدهم يقاومون شريعة الله وأوامر الرسول.

وجاء في التفاسير<sup>(٢)</sup> قصة طريفة بطلها شخص باسم ثعلبة، فقالوا: إنّ ثعلبة بن حاطب الأنصاريّ أتى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أدعُ الله أن يرزقني مالاً.

فقال الرسول ﷺ: «وَيْحَكَ يَا ثَعْلَبَةُ، اذْهَبْ وَاقْتَعِبْ بِمَا عِنْدَكَ؛ فَإِنَّ الشَّاكِرَ أَحْسَنُ مِمَّنْ لَهُ مَالٌ كَثِيرٌ لَا يَشْكُرُهُ».

فذهب ورجع بعد أيّام وقال: يا رسول الله، أدعُ الله تعالى أن يعطيني مالاً.

(١) سورة التوبة، الآية ٧٦.

(٢) تفسير جوامع الجامع، ج ٢، ص ٨٢ - تفسير الصافي، ج ٢، ص ٣٦١ - تفسير القرطبي، ج ٨، ص ٢٠٩.

فقال الرسول ﷺ: «أَلَيْسَ لَكَ بِي أُسْوَةٌ؟ فَإِنِّي بَعْرَةٌ عَرْشِ اللَّهِ لَوْ شِئْتُ لَصَارْتُ جِبَالُ الْأَرْضِ لِي ذَهَبًا وَفِضَّةً».

فذهب ثم رجع فقال: يا رسول الله، سَلِ اللهُ تعالى أن يُعطيني مَالًا، فَإِنِّي أُؤَدِّي حَقَّ اللهُ، وَأُؤَدِّي حَقُوقًا، وَأَصِلُ بِهِ الرَّحِمَ.

فقال الرسول ﷺ: «اللَّهُمَّ أَعْطِ ثَعْلَبَةَ مَالًا».

وكان لثعلبة غَنِيَمَات؛ فبارك اللهُ فيها حتَّى تزايد كما تزايد النَّمْل، فلَمَّا كَثُرَ مَالُهُ كان يتعاهده بنفسه، وكان قبله يُصَلِّي الصَّلوات الخمس في المسجد مع الرسول ﷺ، فبنى مكاناً خارج المدينة لأغنامه، فصار يصلي الظُّهر والعصر مع الرسول ﷺ، وصلاة الصُّبح والمغرب والعشاء في ذلك المكان، ثمَّ زادت الأغنام؛ فخرج إلى دارٍ كبيرٍ بعيد عن المدينة، فبنى مكاناً فذهبت منه الصَّلوات الخمس، والصَّلابة في المسجد، والجماعة، والاقْتداء بالرسول ﷺ، وكان يأتي المسجد يوم الجمعة لصلاة الجمعة، فلَمَّا كَثُرَ مَالُهُ ذهبت منه صلاة الجمعة، فكان يسأل عن أحوال المدينة ممَّن يمرُّ عليه.

فقال الرسول ﷺ: «مَا صَنَعَ ثَعْلَبَةُ».

قالوا: يا رسول الله، إنَّ له أغناماً لا يسعُها وادٍ، فذهب إلى الوادي الفلاني وبنى فيه منزلاً وأقام فيه؛ فقال الرسول ﷺ:

«يَا وَيْحَ ثُعَلْبَةَ، يَا وَيْحَ ثُعَلْبَةَ» - ثلاثاً - وأنزل الله الآيات<sup>(١)</sup>.

وعن أمير المؤمنين عليه السلام في قول له: «مَنْ مَلَكَ اسْتَأْتَرَ»<sup>(٢)</sup>.

وهكذا نجد كيف أنّ كلّ واحد منّا قد يصبح مُنافقاً في ظروف مُعيّنة.

ولكن ما هي عاقبة هذه الفعلة؟

يقول القرآن إنّ عاقبة ذلك تكريس حالة النفاق إلى حين الموت والجزاء، قال تعالى: ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾<sup>(٣)</sup> منذ البدء، ويزعمون أنّهم مؤمنون صادقون، وأنّهم سوف يقومون بعهد الله خير قيام.

ولكن على الإنسان أن يخلص نيّته، ويشهد الله على ما في قلبه ولا يقول ولا يتعهد إلاّ بالحقّ الذي يعتقد به، قال تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) مستدرک الوسائل، ج ١٣، ص ٢٥٧.

(٢) نهج البلاغة، الحكمة رقم ١٦٠.

(٣) سورة التوبة، الآية ٧٧.

(٤) سورة التوبة، الآية ٧٨.

٢

## البخل حاجز عن الإيمان

قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾<sup>(١)</sup>  
 من الحواجز التي تحجز الإنسان عن الإيمان هو (البخل) فالإنسان مجبول على الشح، سواء كان غنياً أو فقيراً، فلو كان يملك خزائن الله، وخزائن رحمته التي وسعت كل شيء؛ لقبض يده خشية الإنفاق.

لقد تكررت في سورة الإسراء المباركة مثل هذه الآية التي تذكّرنا بطباع الإنسان كقوله سبحانه: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا﴾<sup>(٢)</sup>، وقوله ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا﴾<sup>(٣)</sup>، وقوله: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الْإِنْسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَىٰ بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوسًا﴾<sup>(٤)</sup>.

(١) سورة الإسراء، الآية ١٠٠.

(٢) سورة الإسراء، الآية ١١.

(٣) سورة الإسراء، الآية ٦٧.

(٤) سورة الإسراء، الآية ٨٣.

ولعلّ السبب يكمن في أنّ هذه السورة تبينّ فوائد الوحي  
ومن أعظم فوائده: شفاء البشر من طباعه الضعيفة والمنحرفة،  
ومن هنا ذكّرت السورة ببعض هذه الطباع.

• علي بن إبراهيم، قال: لو كانت الأموال بيد الناس  
لما أعطوا الناس شيئاً مخافة الفقر. ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ  
قَتُورًا﴾ أي بخيلاً<sup>(١)</sup>.

• عن مسعدة بن صدقة، عن جعفر، عن آبائه عليهم السلام:  
«أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام سَمِعَ رَجُلًا يَقُولُ إِنَّ الشَّحِيحَ  
أَعْدُرُ مِنَ الظَّالِمِ<sup>(٢)</sup>، فَقَالَ لَهُ: كَذَبْتَ إِنَّ الظَّالِمَ قَدْ يُتُوبُ  
وَيَسْتَغْفِرُ، وَيَرُدُّ الظُّلَامَةَ عَلَى أَهْلِهَا، وَالشَّحِيحُ إِذَا شَحَّ  
مَنَعَ الرِّكَاتَةَ، وَالصَّدَقَةَ، وَصِلَةَ الرَّحِمِ، وَقِرَى الضَّيْفِ،  
وَالْتَفَقَةَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَأَبْوَابَ الْبِرِّ، وَحَرَامَ عَلَى الْجَنَّةِ أَنْ  
يَدْخُلَهَا شَحِيحٌ»<sup>(٣)</sup>.

• عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قال أمير المؤمنين عليه السلام:  
«إِذَا لَمْ يَكُنْ لِلَّهِ فِي عَبْدٍ حَاجَةٌ؛ انْتَبَاهَهُ بِالْبُخْلِ»<sup>(٤)</sup>.

• عن زرارة، قال: سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول:

(١) البرهان في تفسير القرآن، ج ٣، ص ٥٩٦.

(٢) أي أدون، و في بعض النسخ [اعذر].

(٣) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٤٠٠.

(٤) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٤٠١.

«إِنَّمَا الشَّحِيحُ مَنْ مَنَعَ حَقَّ اللَّهِ، وَأَنْفَقَ فِي غَيْرِ حَقِّ اللَّهِ عَزَّوَجَلَّ»<sup>(١)</sup>.

- عن جعفر بن محمد، عن أبيه عليه السلام، قال: «قال رسول الله ﷺ: مَا مَحَقَّ الْإِسْلَامَ مَحَقَّ الشُّحِّ شَيْءٌ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ لِهَذَا الشُّحِّ دَيْباً كَدَيْبِ النَّمْلِ، وَشُعْباً كَشُعْبِ الشِّرْكِ، وَنُسْحَةً أُخْرَى الشُّوْكَ»<sup>(٢)</sup>.

(١) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٤٠٢.

(٢) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٤٠١.





الفصل الرابع:

# كيف نواجه البخل والبخلاء؟





## خلاصة الفصل الرابع

كيف نواجه البخل والبخلاء؟

إنّ الإنفاق في سبيل الله هو علاج البخل، لكن ماذا نفعل؟

علينا أن نستعيد بالله من البخل، قال الله سبحانه: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ﴾<sup>(١)</sup>.

ثمّ يعلم المسلم أنّه لو بخل ولم ينفق في سبيل الله ولم ينصر الرسالة؛ فقد يستبدل به الربّ تعالى آخرين ثمّ لا يكونون مثله، ثمّ على الإنسان أن يجعل نهايته نصب عينيه، فإذا مات وانقطعت علاقته عن الدنيا، ماذا تنفعه ثروته؟ هنالك في تلك الدار يتمنى لو عاد إلى الدنيا، ولو لفته قصيرة حتى ينفق

(١) سورة محمد، الآية ٣٨.

ويصبح من الصّالحين؛ ولكن هيهات، من هنا على الإنسان أن يواجه شحّ نفسه بالكرم والإيثار، ويعرف أن أمام النّفس البشريّة عقبة كأداء ما هي هذه العقبة؟

إنّها ثروته، وعليه أن يقتحمها ويتجاوزها، ولذلك ربّنا يقول: ﴿فَلَا افْتَحَمَ الْعُقْبَةَ﴾<sup>(١)</sup> وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ ﴿٢٣﴾ فَكُنْ رَقَبَةً ﴿٢٤﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْعَبَةٍ ﴿٢٥﴾.

هكذا الإنفاق يكون طريق التخلّص من هذه العقبة الكأداء.

وكان الإمام الرضا عليه السلام إذا أوتي بأكل يعمد إلى ظرف فيجعل أطيب الطّعام فيه، ثمّ يأمر بها إلى المساكين، ويقرأ قوله تعالى: ﴿فَلَا افْتَحَمَ الْعُقْبَةَ﴾، وهكذا يبقى الإنسان بين الحرص والموت، ولعلّ بعضهم يكون حريصاً على الدّنيا حتّى آخر لحظة من حياته؛ فتشمله كلمة الرّبّ سبحانه: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾<sup>(٢)</sup>، فقد تكون صفة التّكاثر والبحث عن الغنى الذي يدفع بالإنسان إلى التعالي على الآخرين حالة نفسية تجعل الإنسان يغفل عن عاقبته، بلى كلّما تذكّر الإنسان ما يجري عليه في تلك الظلمات، استطاع

(١) سورة البلد، الآيات ١١ - ١٤.

(٢) سورة التكاثر، الآية ١.

بإذن الله أن يتعالى عن صفاته النفسية، ففي حديث مأثور عن الإمام الصادق عليه السلام قال: «إِذَا وُضِعَ الْمَيْتُ فِي قَبْرِهِ مُثِلَ لَهُ شَخْصٌ فَقَالَ لَهُ: يَا هَذَا كُنَّا ثَلَاثَةً، كَانَ رِزْقَكَ فَأَنْقَطَعَ بِانْقِطَاعِ أَجَلِكَ، وَكَانَ أَهْلَكَ فَخَلَّفُوكَ وَأَنْصَرَفُوا عَنْكَ، وَكُنْتُ عَمَلَكَ فَبَقِيْتُ مَعَكَ، أَمَا إِنِّي كُنْتُ أَهْوَنَ الثَّلَاثَةِ عَلَيْكَ»<sup>(١)</sup>.

بلى، ترى الناس يفكّرون بأموالهم وأهلهم قبل أن يفكّروا بأعمالهم.

نسأل الله تعالى أن يقينا عن شح أنفسنا، ويرزقنا اقتحام العقبات، إنه ولي التوفيق وصلى الله على محمد وآله الطاهرين.

(١) الكافي، ج ٣، ص ٢٤٠.



## ١

### أمر الله بإنفاق بعض المال ومشكلة البخل

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌّ وَلَهُوَ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِفْكُمْ<sup>(١)</sup> تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْعَنِي وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴿٣٧﴾.

من حكمة ربنا ورحمته بنا: أنه لم يأمرنا بإنفاق جميع أموالنا، وإلا لم يكن يتمسك بعروة الإسلام إلا القليل من الناس، قال تعالى: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِفْكُمْ﴾ يجهدكم في المسألة من الإحفاء بمعنى الإصرار في المسألة، يقول ربنا: ﴿إِنْ يَسْأَلْكُمْوهَا فَيُحْفِفْكُمْ تَبَخَّلُوا وَيُخْرِجْ أَضْعَانَكُمْ ﴿٣٧﴾،

(١) فيحففكم: فيبالغ في الطلب، فإن الإحفاء بمعنى المبالغة.

(٢) سورة محمد، الآيات ٣٦ - ٣٨.

ولكنه جعل دينه سهلاً لينتمي إليه أكبر عدد من الناس، وإذا كان صعباً ويأمر بإنفاق كل المال كان يظهر البخل الذي تنطوي عليه أغلب النفوس.

وبالرغم من أن الله لم يأمرنا بإنفاق جميع الأموال، ترى البعض يبخلون، كما بخلوا بأنفسهم حين أمروا بالقتال، قال تعالى: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ﴾ لأنهم لم يعودوا أنفسهم على البذل والعطاء والتضحية، وجذبهم حب الدنيا، وأوثقهم بوثاقه، ومن ثم تصوروا أن الإنفاق مغرم، بينما هو مغنم كبير، قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَن نَفْسِهِ﴾ لأنه لو أنفق شيئاً لرد إليه أضعافاً مضاعفة، وحاز على رضوان الله الأكبر.

وأى خسارة كهذه الخسارة، أن يحرم الإنسان ثواب ربه ورضاه؟! ولا يدل أمر الله بالإنفاق على حاجته إلى ما نملك، تعالى عن ذلك علواً كبيراً، قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ الْعَنِي وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ﴾، ولأننا فقراء يجب علينا أن ننفق حتى يغنيننا من فضله، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾، فإذا بخلت أمة عن العطاء، فإن الرب يستبدل بها أمة خيراً منها،

تنفق من أموالها، وتجاهد في سبيل الله، وتقدّم التضحيات  
تلو التضحيات، وتصبر وتستقيم.

إنّ توفيق حمل الرّسالات الإلهيّة شرفٌ عظيم لا يعطيه الله  
إلا لمن استعدّ لدفع ثمنه، وثمرته خوض القتال والإنفاق، فإذا  
ضعفت أمة عنها قيّض الله لها أمة أخرى! والواقع: أنّ التاريخ  
يشهد أنّ رسالة الإسلام حملها بعد العرب شعوب أخرى  
كالبرابرة، والفُرس، والأتراك، وإذا خذها المسلمون اليوم فقد  
يقيّض الله لها من أقصى الأرض من يحملها ويؤدّي حقّها، ثمّ  
لا يكونوا أمثال المسلمين.

## ٢

## الإنفاق للتخلص من شح النفس

الإنفاق هو طريق التخلص من شح النفس، وهذا ما تذكر به الآيات وتثيره في أذهان المؤمنين، حيث تضع المؤمنين أمام حقيقة الدنيا أنها فرصة قصيرة حاسمة، كما تضعهم في سباق خطر مع الأجل الذي يطوي صفحة الحياة ليلاقى الإنسان بعدئذ مصيره الأبدي، فإمام مع الصالحين في الجنة وإمام مع أصحاب النار في العذاب.

قال تعالى: ﴿وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾، وحينئذ يواجه مصيره لوحده، ويقدم على الله فرداً لا مال ولا أولاد ولا معين.

وإذ يذكر القرآن الإنسان بمسؤوليته الفردية لكي يفصله عن المؤثرات السلبية المادية والاجتماعية التي تمنعه من الإنفاق، والاستجابة لدعوة الله، ولماذا يبخل الإنسان به على ربه الذي رزقه إياه، وهو منتقل عنه لا محالة بالموت؟!

قال ربنا عز وجل: ﴿فَيَقُولُ رَبِّ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقُ وَأَكُنُ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾<sup>(١)</sup> إنه حينئذ لا يطلب من الله التأخير لألف سنة، إنما يريد أجلاً قريباً كاللحظة؛ لينقذ نفسه من الحسرة والعذاب، وهذا يدل فيما يدل على أنّ باستطاعة الإنسان أن يتغيّر جذرياً بقرار واحد، وخلال لحظة، فينقل نفسه من جبهة إلى أخرى، ومن مصير إلى مصير.

ونتهدي من الآية الكريمة إلى أنّ الصدقة (والإنفاق) معراج المؤمن إلى الصالحات والصالحين، وهنا نجد إجماع لقول الله تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾<sup>(٢)</sup>.

(١) سورة المنافقون، الآية ١٠.

(٢) سورة التوبة، الآية ١٠٣.

٣

## العقبة هي مواجهة شح النفس بالكرم والإيثار

كلّ ما في الإنسان يعكس المسؤولية التي حمل إياها، فقد أهدم الفجور والتقوى، وأودع في داخله نوازع الشرّ، وحوافز الخير، وسخرت له الأشياء لكي يستخدمها في واحد من السبيلين، والسؤال: كيف ينبغي أن يتصرّف حتى يحقق المسؤولية التي هي الهدف من خلقه؟

عليه أن يقتحم، وما لم يفعل ذلك يبقى وراء جدار التخلف. قال تعالى: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ﴿١١﴾ هل تسلّقت الجبال، وهل صادفك طريق وعرّ ضيق بين الصّخور المترامكة، ومن تحتك الوادي العميق، الحالة النفسيّة التي يعيشها المتسلّق الشّجاع هي الحالة المطلوبة في تحدي الصّعاب في الحياة وتحمل المسؤوليّات، قمة في الوعي ومضاء في العزم وشجاعة في الإقدام. أيّة وسوسة، أو تردّد، أو ارتجاج للقدم، أو أيّة غفلة

وتساهل تكفي سبباً للشُّقُوط في الهاوية السَّحيقة!

وقالوا عن الاقتحام: الدَّخُول بِسُرْعَةٍ وَضَغْطٍ وَشِدَّةٍ،  
والعقبة: الطريق الصَّعب الوعر الَّذي فيه صعُود.

وأَيُّ شَيْءٍ الْعُقْبَةُ؟

إنَّهَا تَجَاوِزُ شَحَّ النَّفْسِ، وَمِصَارَعَةُ هَوَاهَا بِالكَرَمِ وَالْإِيثَارِ.  
قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعُقْبَةُ ﴿١٣﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٤﴾﴾ قالوا  
عن فكِّ الرِّقْبَةِ: أَنَّهُ أَشْمَلُ مِنْ عَتَقِ رِقْبَةٍ؛ لِأَنَّ الْعَتَقَ هُوَ تَحْرِيرُ  
الرَّقِّ بِصُورَةٍ كَامِلَةٍ، بَيْنَمَا فَكُّ رِقْبَةٍ يَكُونُ ذَلِكَ بِالْمِشَارَكَةِ  
مَعَ الْآخَرِينَ، وَأُورِدُوا فِي ذَلِكَ حَدِيثاً مَأْثُوراً عَنْ رَسُولِ  
الله ﷺ يَقُولُ الْحَدِيثَ الْمَرْفُوعَ عَنِ الْبِرَاءِ بْنِ عَازِبٍ: جَاءَ  
أَعْرَابِيٌّ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَقَالَ: عَلَّمَنِي عَمَلًا يَدْخُلُنِي الْجَنَّةَ،  
فَقَالَ ﷺ: «إِنْ كُنْتَ أَفْصَرْتَ الْخُطْبَةَ لَقَدْ أَعْرَضْتَ الْمَسْأَلَةَ،  
أَعْتَقَ النَّسْمَةَ، وَفَكَ الرِّقْبَةَ».

فقال: أوليساً واحداً، قال ﷺ: «لَا، عَتَقَ الرِّقْبَةَ: أَنْ تَنْفِرِدَ  
بِعِتْقِهَا، وَفَكَ الرِّقْبَةَ: أَنْ تُعِينَ فِي ثَمَنِهَا، وَالْفِيءُ عَلَى ذِي الرَّحْمِ  
الظَّالِمِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ فَأَطْعِمِ الْجَائِعَ، وَاسْقِ الظَّمَانَ، وَأْمُرْ  
بِالْمَعْرُوفِ، وَأَنْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ، فَإِنْ لَمْ تُطِقْ ذَلِكَ فَكُفْ لِسَانَكَ إِلَّا  
مِنْ خَيْرٍ»<sup>(١)</sup>.

(١) مستدرک الحاكم النيسابوري، ج ٢، ص ٢١٧ - نور الثقلين، ج ٥ ص ٥٨٣.

قال تعالى: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ (١)، إِنَّ الإِطْعَامَ جَيِّدٌ وَعِنْدَ الْمَجَاعَةِ حَيْثُ يَحْضُرُ النَّفْسَ الشَّحُّ، وَيَتَشَرُّ الِاسْتِثْنَاءُ، وَيَصْبِحُ النَّاسُ فِي هَلَعٍ شَدِيدٍ، يَكُونُ الإِطْعَامُ أَكْثَمَ ثَوَابًا، لِأَنَّهُ يَعْتَبَرُ تَجَاوُزًا لِحَالَةِ الشَّحِّ، وَاقْتِحَامًا لِعَقْبَةِ حَبِّ الدَّاتِ.

### الإِنْفَاقُ هُوَ طَرِيقُ التَّخْلِصِ

وقد تضافرت التّصوص الواردة عن أهل البيت عليهم السلام في دور الإنفاق للتخلص من شحّ النفس:

- عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: «مَنْ أَطْعَمَ مُؤْمِنًا حَتَّى يُشْبِعَهُ لَمْ يَدْرِ أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ مَالَهُ مِنَ الأَجْرِ فِي الأَخِرَةِ لَمْ يَكُنْ مُقَرَّبًا، وَلَا نَبِيًّا مُرْسَلًا، إِلَّا اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ». ثم قال: «مِنْ مُوجِبَاتِ المَغْفِرَةِ: إِطْعَامُ المُسْلِمِ السَّعْبَانِ» ثم قرأ قول الله عز وجل: ﴿أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾ (٢) يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مُسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾.

- عن معمر بن خلاد، قال: كان أبو الحسن الرضا عليه السلام إذا أكل أتى بصحفة فتوضع قرب مائدته، فيعمد إلى أطيب الطّعام ممّا يؤتى به، فيأخذ من كلّ شيء شيئاً

(١) سورة البلد، الآيات ١١ - ١٤.

(٢) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٦٦٥.

فيضع في تلك الصحيفة، ثم يأمر بها للمساكين، ثم يتلو هذه الآية: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾ ثم يقول: «عَلِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ لَيْسَ كُلُّ إِنْسَانٍ يَقْدِرُ عَلَى عِتْقِ رَقَبَةٍ، فَجَعَلَ لَهُمُ السَّبِيلَ إِلَى الْجَنَّةِ»<sup>(١)</sup>.

(١) البرهان في تفسير القرآن، ج ٥، ص ٦٦٤.

## ٤

## ابن آدم بين الحرص والموت

بين حاجة الإنسان وحرصه مسافة كبيرة، وما يلهيه عن ذكر الله، وعن المكارم ليست حاجته، بل حرصه الذي يبعثه ويجرضه على التكاثر في الأموال والأولاد، حتى إذا زار قبره لم ينفعه ماله وولده شيئاً، وحوسب على نعيم الله، وتلاشى عنه ما يلهيه، لأنه سوف يرى الجحيم عين اليقين.

وهكذا تعالج سورة التكاثر حالة التلهي بالدنيا عبر التذكرة بالموت، ثم العقاب والحساب، يقول الله سبحانه: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ ۝ حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۝ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۝ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۝ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۝﴾<sup>(١)</sup>.

إن الذي يسعى نحو إشباع حرصه وطموحه؛ يأتي قبره قبل أن يحقق معشار حرصه، هل سمعت بقصة أصحاب البلايين؟

(١) سورة التكاثر، الآيات ١ - ٨.

ألا فكرت في سبب اجتهادهم في الحصول على المزيد من حطام الدُّنيا وهم يملكون أضعاف ما قد يحتاجونه؟! إنَّهم لا يزالون - حسب ظنِّهم - في وسط الطَّريق، لأنَّهم يبحثون دوماً عن أعلى رقم، والأرقام لا تنتهي.

وقال لي أحدهم: إنَّه لا يحصي ما يملك.

وقال آخر: إنَّ سبب جهده البالغ ليس الحصول على الثَّروة،

بل استباق غيره فيها، ولما سألته: وإلى متى؟

قال: هناك دائماً من هو أغنى منِّي، فأنا في بحث دائم! وهذا هو التَّكاثُر الذي يستبد بمشاعر الإنسان ولا يدع متسعاً للتفكير في الآخرة، قال تعالى: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾<sup>(١)</sup> أي شغلكم الاهتمام بالتَّكاثُر فأنساكم الآخرة، وقد اختلف المفسرون في الَّذي ألهاهم، هل هو المفاخرة والمباهاة حسب ما يأتي في بيان شأن النزول، أم التَّجارة والتشاغل بأمر المعاش؟ حسب ما جاء في رواية ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قرأ: ﴿أَلْهَاكُمْ التَّكَاثُرُ﴾<sup>(١)</sup> وقال: «التَّكَاثُرُ: الْأَمْوَالُ الَّتِي جَمَعَهَا مِنْ غَيْرِ حَقِّهَا، وَمَنْعَهَا مِنْ حَقِّهَا، وَشَدَّهَا فِي الْأَوْعِيَةِ»<sup>(١)</sup>.

يبدو أنَّ الدَّافع النَّفسي إلى التَّكاثُر، والتَّنافس في الأموال والأولاد هو الَّذي ألهاهم، سواء تجسد في السَّعي نحوهما أو في

(١) تفسير نور الثقلين، ج ٥، ٦٦٢.

المباهاة بهما، لأن هذا الدافع موجود بالتالي هنا وهناك. ولذلك لا أجد تناقضاً بين ما يظهر من معنى اللفظ من التّشاعل بالتجارة وبشؤون الأولاد، وما ذكر في قصّة نزول السّورة من المباهاة والمفاخرة بذلك، لأنّهما يدخلان تحت عموم اللفظ، ويتّهيان إلى الدافع ذاته.

أمّا شأن النّزول فإنّ المفسّرين اختلفوا فيه كثيراً، ممّا يدلّ على أنّ مراد السّابقين من شأن النّزول أنّ السّورة تنطبق على ما يقولون، ولا تدلّ بالضرورة أنّها نزلت فيهم حقّاً، وهكذا قال بعضهم: إنّها نزلت في اليهود، حيث تفاخرت قبائلهم على بعضهم، وقال البعض: بل في قبيلتين من الأنصار، وقال ابن عباس: بل في حيين من قريش وهما: بنو عبد مناف، وبنو سهم. وأضاف: تعادوا وتكاثروا بالسّادة والأشراف في الإسلام، فقال كلّ حي منهم: نحن أكثر سيّداً، وأعزّ عزيزاً، فكثرت بنو عبد مناف سهماً، ثمّ تكاثروا بالأموال فكثرتهم سهم، فنزلت ﴿الْهَآكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١﴾ بأحيائكم، فلم ترضوا ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۝٢﴾ مُفْتَخِرِينَ بِالْأَمْوَالِ.

بلى، لا يزال النّاس يفتخرون بأجداد الغابرين، ويتكاثرون بمن أمسوا تراباً، وكأّتهم يغنون عنهم شيئاً من أمور دينهم أو دنياهم، هيهات.

قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وقد تلا هذه الآيات: «يَا لَهُ مَرَامًا مَا أَبْعَدَهُ، وَزُورًا مَا أَغْفَلَهُ، وَخَطَرًا مَا أَفْطَعَهُ، لَقَدْ اسْتَخْلَوْا مِنْهُمْ أَيَّ مُدْكِرٍ، وَتَنَاوَشُوهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ، أَفَبِمَصَارِعِ آبَائِهِمْ يَفْخَرُونَ، أَمْ بِعَدِيدِ الْهَلَكَى يَتَكَاثَرُونَ، يَزْتَجِعُونَ مِنْهُمْ أَجْسَادًا خَوْثَ، وَحَرَكَاتٍ سَكَنَتْ، وَلَآنَ يَكُونُوا عَبْرًا أَحَقُّ مِنْ أَنْ يَكُونُوا مُفْتَخِرًا، وَلَآنَ يَهْبِطُوا بِهِمْ جَنَابَ ذَلَّةٍ أَحَجَى مِنْ أَنْ يَقُومُوا بِهِمْ مَقَامَ عِزَّةٍ، لَقَدْ نَظَرُوا إِلَيْهِمْ بِأَبْصَارِ الْعَشْوَةِ، وَضَرَبُوا مِنْهُمْ فِي غَمْرَةٍ جَهَالَةٍ»<sup>(١)</sup>.

من عبر التاريخ ما ينقله الرواة عن مصير هؤلاء المتكاثرين المتفاخرين، يقول قتادة: كانوا يقولون نحن أكثر من بني فلان، ونحن أعز من بني فلان، وهم كل يوم يتساقطون إلى آخرهم، والله ما زالوا كذلك حتى صاروا من أهل القبور كلهم<sup>(٢)</sup>.

وكلمة أخيرة: إن الإنسان لا يني يكافح حتى يزداد مالا وولداً، حتى إذا انهارت قواه، ولما يبلغ مناه تراه يتفاخر بالغايرين، ويتكاثر بأهل القبور البالية.

ما أكفر الإنسان، وما أبعده في الضلال! أفلا يعتبر بمن

(١) نهج البلاغة، الخطبة رقم ٢٢١.

(٢) تفسير القرطبي، ج ٢٠، ص ١٦٩.

هلك من قومه، ويقول: إني من بعدهم لهالك، أفلا أرتدع عن التلهي بالدنيا، وأنا وارد موردهم، ونازل بمنزلهم.

ويبقى الإنسان سادراً في غفلته، لاهياً بالتنافس على حطام الدنيا، حتى يزور المقابر، ليرى بيت الوحشة مظلماً لم ينوره بمصاييح الصلاح، ولم يمهده بحميد الفعال؛ فلا ينفعه يومئذ مال ولا بنون، ولا يغنيه مجد ولا فخر.

كما جاء في الحديث المأثور عن الإمام الصادق عليه السلام:  
**«إِذَا وُضِعَ الْمَيِّتُ فِي قَبْرِهِ مِثْلَ لَهُ شَخْصٌ فَقَالَ لَهُ: يَا هَذَا كُنَّا ثَلَاثَةً؛ كَانَ رِزْقُكَ فَاثْقَطَعَ بِاِثْقَاطِ أَجَلِكَ، وَكَانَ أَهْلُكَ فَخَلَّفُوكَ وَانْصَرَفُوا عَنْكَ، وَكُنْتُ عَمَلَكَ فَبَقِيْتُ مَعَكَ، أَمَا إِنِّي كُنْتُ أَهْوَنَ الثَّلَاثَةِ عَلَيْكَ»<sup>(١)</sup>.**

**﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾** ﴿٢﴾ ولعل التعبير بـ **﴿حَتَّى﴾** للدلالة على أن التكاثر الذي يضر بصاحبه هو الذي يتصل بالموت، فلو تاب صاحبه من قبل نفعته توبته، وللدلالة أيضاً على أن التكاثر يبقى يلهي صاحبه حتى الموت، فعلينا ألا نسترسل معه، ولا ينظر بعضنا إلى ما أنعم الله على الآخر من أزواج، وأموال، وأولاد، بل ينظر في أمور الدنيا إلى من دونه، وفي شؤون الآخرة إلى من هو فوقه، قال تعالى: **﴿وَلَا تَمُدَّنَّ**

(١) بحار الأنوار، ج ٦، ص ٢٦٥.

عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى»<sup>(١)</sup>.

والسؤال: لماذا قال: ﴿زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾؟

أجابوا: لأنّ العرب يقولون لمن مات: قد زار قبره، ويبدو أنّ التعبير يوحي أيضاً بأنّ من يموت لا يفنى، إنّما ينتقل من عالم لآخر، فهو كالزائر. وقيل: إنّ معنى زيارة المقابر: التّفاخر بالأموات، والتّكاثر بعددهم، حسب ما سبق في بيان نزول السّورة، وقلنا هناك: إنّ الآية تتسع لهذا المعنى أيضاً، ولذلك ذكر بعض المفسّرين أهميّة زيارة القبور، وأنها تذكّر الإنسان بالموت، وتزهده في الدّنيا، وذكروا نصّاً مأثوراً عن رسول الله ﷺ أنّه قال: «كُنْتُ نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ، فزُورُوا الْقُبُورَ، فَإِنَّهَا تُزْهِدُ فِي الدُّنْيَا، وَتُذَكِّرُ الْآخِرَةَ»<sup>(٢)</sup>.

وقد حتّ الإسلام على ذكر الموت، والذي يتمّ بعضه بزيارة القبور، حتّى جاء في حديث مأثور عن الإمام الباقر عليه السلام: «يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، أَكْثَرُ ذِكْرِ الْمَوْتِ؛ فَإِنَّهُ لَمْ يُكْثِرْ إِنْسَانٌ ذِكْرَ الْمَوْتِ إِلَّا زَهَدَ فِي الدُّنْيَا»<sup>(٣)</sup>.

(١) سورة طه، الآية ١٣١.

(٢) تفسير القرطبي، ج ٢٠، ص ١٧٠.

(٣) الكافي، ج ٣، ص ٢٥٥.

وحينما سُئِلَ رسول الله ﷺ: أَيُّ الْمُؤْمِنِينَ أَكْبَرُ؟

قال: «أَكْثَرُهُمْ ذِكْرًا لِلْمَوْتِ، وَأَشَدَّهُمْ لَهُ اسْتِعْدَادًا»<sup>(١)</sup>.

وجاء في حديث شريف عن أمير المؤمنين عليه السلام قال:

«ابْنُ آدَمَ إِنْ كُنْتَ تُرِيدُ مِنَ الدُّنْيَا مَا يَكْفِيكَ، فَإِنَّ أَيْسَرَ مَا فِيهَا يَكْفِيكَ، وَإِنْ كُنْتَ إِنَّمَا تُرِيدُ مَا لَا يَكْفِيكَ، فَإِنَّ كُلَّ مَا فِيهَا لَا يَكْفِيكَ»<sup>(٢)</sup>.

وجاء في حديث آخر عن النبي ﷺ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي

مَالِي، وَهَلْ لَكَ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَفْتَيْتَ، أَوْ لَبِستَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ»<sup>(٣)</sup>.

(١) الكافي، ج ٣، ص ٢٥٧.

(٢) الكافي، ج ٢، ص ١٣٨.

(٣) بحار الأنوار، ج ٧٠، ص ١٣٨.

## الفهرس

- تقديم آية الله العظمى المرجع الديني السيد محمد تقي المدرسي... ٧  
 مقدمة الكتاب..... ١٥

## الباب الأول: الإيثار ٢١

### الفصل الأول:

- ٢٣ رحلة الإنفاق و التضحية  
 ٢٥..... خلاصة الفصل الأول  
 ٢٧..... الإنفاق سبيل التضحية  
 ٣٠..... التضحية من أجل الرسالة

### الفصل الثاني:

- ٣٥ لماذا نضحّي؟  
 ٣٧..... خلاصة الفصل الثاني  
 ٣٩..... لماذا أمر الله نبيّه إبراهيم عليه السلام بذبح ابنه؟  
 ٤٣..... سخافة التضحية بالأبناء من أجل أهداف تافهة

## الفصل الثالث:

### فوائد التّضحية

٤٥

- ٤٧..... خلاصة الفصل الثالث
- ٤٩..... التّضحية حصن المكاسب
- ٥٢..... التّضحية ومنافعها الكُبرى
- ٥٦..... كيف نجعل من التجمّعات البشريّة وسيلة إلى التّضحية؟

## الفصل الرابع:

### دروس في التّضحية

٦٥

- ٦٧..... خلاصة الفصل الرابع
- ٦٩..... عبر من إيثار الأنصار
- ٧٤..... علاقة الأجيال المؤمنة ببعضها
- ٧٤..... أوّلاً: الحبّ القلبي الصادق
- ٧٧..... ثانياً: التجردّ عن الحسد للّاحقين بهم
- ٨٠..... ثالثاً: الإيثار
- ٨٣..... الأنصار مصداق رائع للإيثار
- ٨٩..... درس الإيثار والتّضحية

٩١

## الباب الثاني: البخل

### الفصل الأول:

#### من هم البُخلاء؟

٩٣

- ٩٥..... خلاصة الفصل الأوّل
- ٩٩..... البُخل مرض الأغنياء
- ١٠٦..... بخل الطبقة الغنيّة وضرورة تحصين المجتمع من أمراضهم

## الفصل الثاني:

### أسباب البخل

١١٥

- ١١٧..... خلاصة الفصل الثاني
- ١١٩..... البخل نتيجة النظرة الهادئة للإنفاق
- ١٢٤..... شح النفس يمنع الإنفاق
- ١٢٦..... الاغترار بالنعم

## الفصل الثالث:

### آثار البخل

١٣١

- ١٣٣..... خلاصة الفصل الثالث
- ١٣٥..... النفاق عقبى البخل
- ١٣٩..... البخل حاجز عن الإيمان

## الفصل الرابع:

### كيف نواجه البخل والبخلاء؟

١٤٣

- ١٤٥..... خلاصة الفصل الرابع
- ١٤٩..... أمر الله بإنفاق بعض المال ومشكلة البخل
- ١٥٢..... الإنفاق للتخلص من شح النفس
- ١٥٤..... العقبة هي مواجهة شح النفس بالكرم والإيثار
- ١٥٦..... الإنفاق هو طريق التخلص
- ١٥٨..... ابن آدم بين الحرص والموت

